جميلة

هأنذا، أقف مرة أخرى أمام هذه اللوحة الصغيرة نسبياً في إطارها البسيط. ويجب عليّ أن أسافر غداً منذ الصباح إلى القرية. إنني أنظر إلى هذه اللوحة طويلاً وبشغف، وكأنها تعطيني قوة خيّرة في طريقي.

لم يسبق لي أن عرضت هذه اللوحة في معرض ما. زد على ذلك، أنه عندما يحضر إلي أقارب من القرية، أحاول أن أخفيها بعيداً عن الأنظار. فلا يوجد فيها أي شيء يثير الخجل، ولكنها لا تمثل نمطاً فنياً جيداً. إنها بسيطة جدّاً؛ كالأرض ببساطها، وقد انعكست من خلالها.

في أعماق اللوحة، قسم من السماء الداكنة قليلاً. والرياح تدفع إلى جهة السلسلة الجبلية غيوماً متقطعة سريعة. وفي مقدمة اللوحة، أرض حمراء موشومة بنبات الشيح. والطريق امتدت سوداء، ولم تجف بعد سقوط الأمطار في الأيام الماضية، وعلى حوافها تناثرت أغصان شجيرات الشاي، التي تم تقليمها، ولم تجف بعد. وإلى جانب الطريق بدت آثار أقدام رفيقين سارا جنباً إلى جنب. وكلما ابتعدا، كانا ينحرفان قليلاً عن الطريق، حتى أصبح من الواضح، أنهما بعد خطوة، سيصبحان خارج حافة الطريق. وبدا أن أحدهما... - يبدو أنني بهذا أذهب بعيداً إلى المستقبل...

كان هذا في بداية ربيع شبابي. وكنّا قد دخلنا في السنة الثالثة للحرب[1]. وعلى الجبهات البعيدة؛ حول كورسك، وأريول وغيرهما، كان يقاتل آباؤنا وإخوتنا. أما نحن فكنّا أولاداً، في الخامسة عشرة من عمرنا، أخذنا نعمل في الكولخوزات[2]. كان العمل الفلاحي اليومي بكل صعوباته على أكتافنا اليافعة، والتي لم يكتمل نموها بعد. ولاسيما تلك المعاناة، التي كنا نعانيها من الحرّ في أيام الحصاد الطويلة. وكنا على مدى عدة أسابيع لا نعرف الراحة، ولا نعود إلى بيوتنا مطلقاً، ونقضي الأيام والليالي في الحصاد، أو في الطرقات من الحقول إلى محطة استلام الحبوب، وبالعكس...

في أحد الأيام الحارة، بدت المناجل وكأنها قد احمرّت من جني القمح، كنت عائداً من المحطة عبر الطريق المحاذي للحقول، فقررت أن أعرج إلى البيت. إلى جانب المخاضة، وعلى تلة قريبة، حيث ينتهي الشارع، كان يوجد منزلان قد تم تجهيزهما على خير وجه، وحولهما سور طوب جميل. وأشجار الحور العالية تتمايل بهدوء. هذان هما بيتانا. فمنذ أمد بعيد عاشت أسرتينا فيهما. أنا من البيت الكبير، ولديّ أخوان، كلاهما أكبر مني، وغير متزوجين. لقد غادرا إلى الجبهة، ولم تصلنا منهما أيّة أخبار.

أما والدي فقد كان نجاراً مسناً، ينهض باكراً عند بزوغ الفجر، يؤدي الصلاة، ثم يذهب إلى المشغل العام في ورشة النجارة، ويعود عند كل مساء بعد حلول الظلام.

في البيت كانت تقبع أمي وأختي الصغيرة.

---

[1] الحرب العالمية الثانية 1941- 1945. - (المترجم).

[2] الكولخوز: جمعية تعاونية زراعية ذات صفات تشاركية لسكان القرية. - (المترجم).

وفي البيت المجاور، ويسمونه في القرية البيت الصغير، كان يعيش أقاربنا المقربون، من أولاد عمنا، أو أجدادنا، أو أولاد أجدادنا. على كل حال كانوا أخوة لنا. أسميهم أقارب لأننا عشنا وإياهم في أسرة واحدة. هكذا جرت العادة منذ أيام تحضرنا بعد مرحلة الترحال، عندما كان أجدادنا يعملون في تربية المواشي والعناية بها. وتابعنا نحن هذه التقاليد وحافظنا عليها. وعندما تم تشكيل التعاونيات، قرر آباؤنا أن يبنوا هذين البيتين جنباً إلى جنب. وليس هذا هو حالنا فقط، بل كل شارع أرال، الذي نعيش على حافته والممتد على طول القرية بين النهرين، وبالمناسبة - كل أقاربنا من القبيلة هم من أصل واحد.

وبعد تشكيل التعاونية توفي صاحب البيت الأصغر، وبقيت زوجته مع ولدين صغيرين. وحسب التقاليد والعادات القبلية، والتي كان لها أثر عميق في القرية، لا يجوز أن تتزوج أية أرملة لقريب من العائلة بعيداً عن القبيلة، لاسيما أن لها وَلَدَيْن من نسلنا. لهذا قرر الفقهاء في قبيلتنا أن يتزوج أبي أرملة قريبه الراحل. وهذا فرض عليه واجباً إنسانياً أمام أرواح الأقدمين: لقد كان بالنسبة للمرحوم الراحل أقرب شخص في القبيلة.

وهكذا ظهرت لدينا أسرة ثانية، وبقي البيت الصغير ملكية مستقلة، مع كل ملحقاته، ومواشيه، ولكننا في واقع الحال كنّا نعيش معاً.

لقد ودّع البيت الأصغر اثنين من أبنائه: الأخ الكبير كان يدعى صادق. وقد غادر إلى الجبهة بعد مدة قصيرة من زواجه. وكنا نتلقى منهما الرسائل، التي كانت تأتي بعد طول انتظار.

في البيت الصغير بقيت الأم، التي كنت أناديها "كيتشيانا"؛ أمي الصغيرة مع زوجة ابنها صادق. وكانتا تعملان من الصباح إلى المساء في الكولخوز. وكانت أمي الصغيرة امرأة معطاءة، حنونة، طيبة. وفي العمل، لم يكن عملها أقل من عمل الشباب، سواء في شق القنوات، أو في أعمال السقي - وبكلمة، لقد كانت تمسك الفأس بقوة. وقد أخصّها القدر بكنّةٍ تحب العمل، لا تكل ولا تمل، حاذقة، ولكن تختلف عنها في طباعها المتميزة.

لقد أحببتُ جميلة. وهي أحبتني. وتعمقت الصداقة بيننا، ولكننا لم نجرؤ يوماً على مخاطبة بعضنا بالاسم، وكأننا غرباء، وكان بإمكاني أن أناديها يا جميلة، ولكنني كنت أناديها "جيني" (زوجة أخي الأكبر)، أما هي فتناديني: "كيتشيني بالا" - (أيها الشاب الصغير)، مع العلم أنني لم أكن صغيراً، فالفرق في العمر كان بسيطاً. وهكذا كان شكل التعامل في القرية: فالكنّات ينادين الأخوة الأصغر للزوج بـ "كيتشيني بالا" أو "كايني".

أما بالنسبة لأعمال البيتين بما في ذلك الغزل، فقد كانت تقوم بها أمي، وتساعدها أختي الصغيرة، وهي فتاة مرحة، تضع أشرطة ملونة في نهاية ضفائرها. لم أنسَ مطلقاً كيف كانت تعمل بنشاط في تلك الأيام الصعبة. لقد كانت ترعى الخراف والعجول للبيتين خارج بيادر المنزلين. وتجمع مخلفات الأبقار والحطب، حتى يعمَّ الدفء المنزلين في فصل الشتاء. نعم، إنها هي ذات الأنف الأفطس، قد ملأت البيت بهجة وأنستْ أمها وحدتها، وأبعدتها عن الأفكار الحزينة بخصوص ولديها اللذين لم تصل أيّة أخبار عنهما.

لقد كان التوافق والأريحية في البيت، الذي كان يضم أسرة كبيرة بفضل أمي. فهي السيدة وصاحبة الأمر في المنزلين. وهي

المحافظة الوفية على العش الأسري. لقد جاءت أمي شابة ودخلت إلى أسرة أجدادنا الرعاة شابة منذ صغرها، وحافظت وبكل قدسية على ذكراهم، وهي تشرف على الأسر بكل عدالة وإنصاف، منطلقة من تجاربها الذكية والمبدعة كربّة منزل. كل شيء في البيت كان بإشراف الأم. والحق يقال: إن أهالي القرية لم يحسبوا والدي الشخص الرئيس في الأسرة. وقد سمعنا الناس أكثر من مرة يتكلمون في هذا الموضوع: "من الأفضل لك أن تذهب إلى الرأس. - هكذا كانوا يسمون الحر في البارع - إنه يعرف البلطة الماهرة. فبالنسبة لهم لديهم الأم الأكبر هي سيدة صاحبة الأمر والنهي في كل شيء. - فاذهب إليها، وستجد عندها الإجابة المقنعة...".

وعليّ أن أقول، إنني، وعلى الرغم من صغر سني، كنت أتدخل غالباً في شؤون المنزل. وكان هذا ممكناً، بسبب ذهاب أخوتي الأكبر مني سناً إلى الحرب. ولهذا، ومن باب المزاح، وأحياناً من باب الجدية كانوا ينادونني بفارس الأسرتين. كنت أفتخر بهذا، وأخذت أشعر بعبء المسؤولية. زد على ذلك أن أمي ساهمت بدعم استقلالي، وتقوية إرادتي. وكانت ترغب في أن أكون صاحب بيتٍ، وذا شأن، وليس كأبي منفذ بارع يسوي وينعم الأخشاب وينشرها بصمت وتقنية.

هكذا وصلت، وأوقفت العربة جانب المنزل في الظل، تحت شجرة الصفصاف، ثم خففت شد العربة، وعندما اتجهت نحو البوابة، رأيت رئيس مجموعتنا أرزومات. كان يجلس فوق صهوة جواده كعادته، ورجله الاصطناعية مثبتة إلى السرج، وبالقرب منه كانت تقف أمي، وهما يتناقشان حول أمر ما. اقتربت قليلاً، وعندها سمعت صوت أمي تقول له:

- هـذا لـن يكـون! اتَّـقِ اللّه! أيـن حصـل مثـل هـذا، أن تقـوم امـرأة بتحميـل الأكيـاس ونقلـها علـى العربـة إلى مركـز التسـليم؟! لا، يا عزيزي. اترك كنتي على حالها، ودعها تعمل كما كانت تعمل سابقاً. وأنت ترى حالي. لا يقوى ظهري على الانتصاب من شدة الألم، وعليّ أن أقوم بعمل بيتين. وليت ابنتي كانت أكبر، لكانت قد ساعدتني قليلاً. آلام ظهري ازدادت في الأسبوع الأخير، وكأني قد أنتجت عدة قطع من اللُبَاد، وأنت ترى أعواد الذرة عطشى تنتظر السقاية! كانت أمي تتكلم بانفعال، وهي تغرس نهاية عمامتها خلف ياقة فستانها. وعادة كانت تقوم بهذه الحركة في حالة الغضب.

«يا لك من إنسانة! - قال أرزومات يائساً من جدوى النقاش، وهو يتأرجح فوق السرج - لو كانت رجلي على حالها، وليست قطعة خشب، هل كنت سأطلب منك هذا؟ وكان من الأفضل لي أن أقوم بهذا بنفسي، وأقذف الأكياس واحداً بعد الآخر في العربة كسابق عهدي، وتنطلق الجياد بسرعة... وللأسف كان عليّ أن أطلب من زوجات المحاربين. وأنت تمنعين كنّتك من القيام بهذا العمل، والقيادة لدينا لا تبخل برشقنا بأفظع الشتائم، فالجنود على الجبهات يحتاجون للخبز، ونحن نقصر في تنفيذ الخطة. هل يناسبكم هذا؟ وهل يجوز هذا؟».

اقتربت منهما، جارّاً السوط خلفي على الأرض. وعندما رآني رئيس المجموعة انفردت أساريره، وفرح جداً؛ يبدو أن ثمة فكرة ما قد خطرت له، إذ قال:

- إن كنتِ تخافين على كنّتك إلى هذا الحد، فها هو حاميها - وأشار رئيس الفرقة إليَّ بغبطة - وهو لن يسمح لأحد أن يقترب منها.

ولا ينبغي أن تشكّي في هذا الأمر! الشاب سيت ذو أخلاق حميدة. وهؤلاء الشباب من أمثاله؛ هم من يطعموننا، وهم وحدهم ينقذونا.

لم تعطِ الأم لرئيس الفرقة فرصة أن يكمل حديثه.

- آه يا بني، ماذا فعلت بحالك! ومن تشبه يا بني، وكأنك مشرد؟! - قالت الأم باستغراب - ورأسك كيف أصبح، لقد طال شعرك كثيراً... وأبوك إنسان رائع أيضاً، لا يجد الوقت لحلاقة شعر ابنه.

- وهكذا، علينا أن نغض النظر، ودع الولد ينعم بدلال والديه - قال رئيس الفرقة، بالصيغة نفسها، التي تكلمت بها الأم- عليك يا سيت أن تبقى في البيت اليوم. لا تنسَ أن تطعم الخيل. وغداً من الصباح نعطي جميلة عربة: سوف تعملان سوية. وعليك أن تكون مسؤولاً عنها أمامي! ولا تخفن يا نسوة، فسيتٌ لن يسمح أن تصاب جميلة بأي أذى. وإذا تم الأمر كذلك، فإنني سأرسل معهما دانيار. إنكم تعرفونه جيداً: شاب طيب، ولكنه صغير... ذلك الشاب، الذي عاد منذ أيام من الجبهة. وهكذا ستعملون في خلية من ثلاثة أشخاص، ومهمتكم نقل الحبوب إلى المحطة. ومَنْ يجرؤ حينها على مسِّ كنتك بسوء؟ أليس كذلك يا سيت؟ كيف ترى الأمر؟ نريد أن نضع جميلة في مجموعة النقل، ولكن أمك غير موافقة، فتكلم أنت معها وأقنعها بهذا.

لقد راق لي كلام رئيس الفرقة، وأعجبني أنه يأخذ برأيي، كما يؤخذ برأي الرجال. زد على ذلك أنني أعجبت على الفور بفكرة العمل مع جميلة، وأن نذهب إلى المحطة معاً. اتخذت وضعية الجدية في الأمر، وقلت لأمي:

- لن يصيبها أيّ أذى، وهل ستأكلها الذئاب؟! - سرت خطوتين

كعربجي مجرب، وبصقت جانباً، وأنا أجر السوط من خلفي، محركاً كتفيّ بالتناوب.

- هكذا تقول إذاً - دُهِشَتْ الأم وكأنها قد سرت، ولكنها قالت غاضبة، وبصوت عال: سأريك الذئاب! من أين تعرف كل هذا؟ يا لك من ذكي ظهرت فجأة!

- ومن يعرف غيره، فهو وحده يعلم لأنه زعيم أسرتيكما، وعليك أن تفاخري به!- قال أرزومات مدافعاً عني، وهو ينظر إلى أمي بصبر، عسى ألا تعود ثانية إلى حالة العناد والرفض.

ولكن أمي لم تحتج ثانية على كلامه، والتزمت الصمت الحذر، وتمتمت بكلمات، وتنهدت بصعوبة:

- عن أيِّ زعيم تتكلم، ما زال صبياً، وهو يعمل ليلاً نهاراً في الحقول والمحطة... فالرجال عندنا هم أولئك البعيدون عنا، والله وحده يعلم أين هم الآن! لقد فرغت بيوتنا كمضارب الرعاة الخالية...

ابتعدت، ولم أعد أسمع ماذا قالت أمي بعد هذا. وضربت أثناء سيري زاوية المنزل بالسوط، حيث تصاعد الغبار، ولم أبادل أختي الابتسامة، التي أظهرتها عند رؤيتي، وهي تقلب براحتيها طبابيع الزبل[1]. دخلت إلى المنزل من تحت الستار. جلست القرفصاء، وغسلت يدي حيث صببت الماء من الإبريق. ثم دخلت إلى الغرفة وشربت كوباً من اللبن الرائب، وحملت كوباً آخر إلى قاعدة النافذة، وأخذت أضع قطعاً من الخبز فيه.

---

[1] تجمع بقايا الحيوانات من أغنام وخيول وأبقار، وتخمر في الشتاء، وفي بداية الصيف تجبل مع شيء من التبن أو الحشائش اليابسة، ويصنع منها قطع تجفف تحت أشعة الشمس، وتخزن لاستخدامها كوقود في الشتاء. - (المترجم).

أمي وأرزومات ما زالا في ساحة المنزل، ولكنهما كفّا عن النقاش الحاد، وأخذا يتحدثان بصوت هادئ وغير مرتفع. ربما كانا يتحدثان عن أختي. أما أمي فقد كانت تمسح عينيها المنتفختين بكمي ثوبها، وهي تهز رأسها بألم وحزن، وهي تجيب أرزومات، الذي حاول أن يخفف من ألمها. وتابعت تنظر بكآبة إلى الأفق البعيد جداً، من فوق رؤوس الأشجار، وكأنها كانت تحلم برؤية وجهي ولديها في الأفق البعيد.

وتحت وقع هذا الحزن، مالت الأم للموافقة على اقتراح رئيس الفرقة. وكان هو مسروراً، حيث حقق ما أراد. ضرب الحصان الرهوان بالسوط فانطلق من ساحة البيت وهو يعدو بسرعة.

ولم تفكر أمي، ولا أنا آنذاك، كيف سينتهي الأمر.

لم يساورني أي شك أنّه بإمكان جميلة أن تقود عربة يجرها حصانان بكل بساطة. إنها تعرف سياسة الخيل منذ صغرها، فهي ابنة مربي خيول في قرية جبلية تدعى "باكاير". وأخونا صادق كان أيضاً مربياً وراعياً للخيول. وذات مرة، في الربيع، نُظّم سباق، ويقال إنه لم يستطع اللحاق بجميلة. فمن يعرف، هل هذا صحيح؟ وهناك من يقول: أن صادق بعد هذه الإهانة خطف جميلة. وآخرون يقولون إن صادق وجميلة تزوجا بعد حب كبير. ومهما يكن من أمرهما، فقد تزوجا، وعاشا معاً أربعة أشهر، ثم بدأت الحرب، ودعي صادق إلى الجبهة.

لا أعلم كيف من الممكن شرح هذا؟ ربما تكون جميلة قد أجادت معاملة الخيل من خلال تجربتها مع أبيها في رعي قطيع الخيول، إذ أنها كانت ابنته الوحيدة، فهي البنت وهي الولد. وفي

تصرفاتها كانت تظهر سمات تصرفات الرجال، كالحدّة أحياناً، والخشونة أحياناً أخرى. وكانت جميلة تعمل بقوة الرجال، وعلى درجة واحدة معهم. ومع جاراتها كانت تحل الأمور سلمياً، ولكن إذا أخطأت واحدة عن قصد، فإنها لا تتنازل عن حقها. وحدث أن تابعت الخصام حتى نهايته، وجرّت بعض النسوة من شعرهن.

غالباً ما كان الجيران يأتون ويشتكون منها قائلين:

- ما قصة هذه الكنّة عندكم؟! لم تعش عندكم سوى أسبوع وأصبحت لا تجارى في النقاش والحديث، ولا تخشى أياً كان، ولا تستحي من أحد!

- حسناً إنها هكذا! - كانت تجيب أمي كلَّ مَن ينتقد جميلة - فكنتنا تحب الحقيقة، وتقولها بلا مواربة. وهذا أفضل بكثير من أن تكون "في الوجه مرايا، وفي القفا صرماية". فانظروا إلى كنّاتكم يظهرن بمنظر الهدوء، ويا لهن من هادئات! لا يختلفن عن البيض الفاسد؛ من حيث الشكل الخارجي ناعم ونظيف، أما من الداخل، فعليك أن تسدّ أنفك عند الاقتراب منه.

أما أبي وأمي الصغرى لم يتصرفا مع جميلة تصرفاً فيه شيء من القسوة والتأنيب كما يحدث في بعض الأحيان بين الحمو والكنة، وكانا يعاملاها بأسلوب المسنّين، وأحبّاها بصدق وتمنيا لها شيئاً وحيداً: أن تكون وفية للإله ولزوجها.

كنت أتفهم موقفهما، فبعد أن ودّعا أولادهما الأربعة إلى الحرب، وجدا في جميلة عزاء. فهي الكنّة الوحيدة في البيتين، ولهذا كانا يدللانها. ولكنني لم أفهم أمي، فهي ليست تلك الإنسانة، التي تحب إنساناً ما ببساطة. فأمي كانت تمتاز بقوة الإرادة وحب القيادة.

فهي عاشت حسب أعرافها وطبيعتها، ولم تغير شيئاً منها. ففي كل عام، ومع قدوم الربيع كانت تضع خيم الترحال حسب الأصول في مكانها في ساحة المنزل، وتدخن حولها بعد أن تشعل نبات العرعر الفواح، لاسيما أن هذه اليورتا كان قد صممها الأب في شبابه. ولقد ربتنا تربية صارمة على حب العمل والاحترام للكبار. وكانت تطلب من أعضاء الأسرة الطاعة والانضباط.

وهكذا، ومنذ الأيام الأولى، التي أخذت جميلة تعيش فيها معنا، لم تتقمص طبيعة جديدة ككنة عليها أن تسلك سلوكاً معيناً. بالطبع كانت تحترم الكبار، وتنفذ ما يرغبون به، ولكنها لم تحنِ رأسها بخنوع أمام أي أحد. ولم تلجأ إلى أسلوب الكلام بحدة، أو إلى الهمس وهي تدير ظهرها مبتعدة بفظاظة، كغيرها من الشابات. فهي كانت تقول رأيها بصراحة، وتعبر عما تريد بشجاعة ورزانة. وكانت أمي غالباً ما تقف مؤيدة إياها فيما تقول، ولكنها كانت تحتفظ لنفسها بالقول الفاصل.

يبدو لي أن أمي كانت ترى في جميلة، في صراحتها واستقامتها إنسانة نظيرة لها في طباعها، وكانت تطمح في قرارة نفسها أن تصبح جميلة في وقت ما سيدة البيت تدير شؤون البيتين، وأن تكون مثلها سيدة البيت المحافظة على حمى الأسرة وشؤونها.

- اشكري الله يا ابنتي - قالت أمي واعظةً جميلةَ - أنت حللت في بيتٍ عامر الأركان، وذي أصلٍ عريق. وهذا لحسن حظك، وسعادتك. وسعادة المرأة أن تلد الأولاد، وأن يكون كل شيء ميسر في المنزل. وعندك "الحمد لله" سيكون كل هذا، فما جمعنا من أرزاق، نحن الكبار، لن نأخذه معنا إلى القبر. والسعادة تدوم فقط عند أولئك

الذين يحافظون على كرامتهم وضميرهم. تذكري هذا دائماً، وانتبهي لنفسك!...

وثمة شيء ما كان يثير حيرة أمي في جميلة: لقد كانت في بداية الأمر صريحة للغاية ومرحة تفرح كالطفل الصغير. وفي بعض الأحيان، كان بإمكانها أن تضحك دون أسباب موجبة، وبصوت عالٍ، وبفرح كبير. وعندما كانت تعود من العمل، كانت تسرع في الدخول إلى المنزل، وغالباً تقفز فوق الساقية عبر الطريق الأقصر، وتهرع تقبّل حماتها أو غيرها من الأقارب الموجودين..

أحبت جميلة الغناء، وكانت تردد بعض الأغاني، التي تحبها، دون أن تستحي من الكبار. وبالطبع، هذا لم يتناسب مع التصور السائد في القرية حول أعراف سلوك الكنة في الأسرة. ولكن الحماتين كانتا تعللان أنفسهما بالأمل بأن جميلة سوف تهدأ مع الزمن: ففي سن الشباب كانتا هما وغيرهما هكذا. أما بالنسبة لي فلم يكن أفضل من جميلة أي إنسان على وجه المعمورة. لقد كان كل منّا مسروراً مع الآخر، ونشعر بالمرح والمزاج الحسن، وبإمكاننا أن نضحك بلا نهاية وبلا أسباب كبيرة، ونطارد بعضنا في ساحة المنزل كالأطفال.

كانت جميلة حسناء الهيئة، رشيقة القوام، هيفاء، فارعة الطول. وشعرها الأسود الناعم مجدول في ضفيرتين أنيقتين ثخينتين. وكانت ترتدي منديلاً أبيض بأناقة، حتى غطت جزءاً من جبهتها به. وكان هذا يتناسب مع وجهها الأسمر الناعم. وعندما كانت تضحك كانت تبرز عينيها الجميلتين السوداوين مشعتين بالبهجة في إطارهما اللوزي. وتبدو أكثر شباباً وحيوية. أما عندما كانت تغني الأغاني

الريفية، كان يظهر في عينيها الجميلتين لمعان عيني المرأة، التي تجاوزت مرحلة الشباب...

كنت غالباً ما ألاحظ أن هؤلاء "الفرسان" العائدين من الحرب على وجه الخصوص، ينظرون إلى جميلة باهتمام. وجميلة كانت تحب المزاح، ولكنها كانت تضرب على أيدي أولئك، الذين تناسوا قواعد السلوك. وعلى أي حال كان هذا يثير حفيظتي. كنت أغار عليها، كما يغار الشباب الصغار على أخواتهم. وإذا شاهدت أحداً ما يقف بالقرب من جميلة، ولاسيما من الشباب، كنت أعمل جهدي لإزعاج هؤلاء، كنت أتجهّم، وأنظر إليهم بغضب، وكأن منظري يقول لهم: "عليكم أن تبتعدوا من هنا. إنها زوجة أخي، ولا تعتقدوا أنه لا يوجد من يدافع عنها".

في مثل هذه اللحظات، كنت أتدخل وبحماسة، وبسبب أو بلا سبب في الحديث الدائر بين الشباب وبينها، حتى أنقذها من شر المهتمين بها، و عندما كان الشبان يتجاهلوني كنت أحتد غضباً وأحاول مهاجمتهم.

ينطلق الشباب ضاحكين وهم يسخرون:

- يا لطيف، انظروا إليه كم هو محتد! فهي لا تقربه وليست زوجة أخيه! وهكذا علينا بهدوء ونحن لا نعلم شيئاً!

اشتد عودي ولكني كنت أشعر كيف تآمروا ضدي، فاحمرت أذناي وصارت الدمعة في عيني. أما جميلة زوجة أخي فقد تفهمت وضعي ، فتجهم وجهها ووضعت حداً للضحك ثم قالت:

- هل تعتقدون أن النساء يتساقطن على الطريق أمامكم؟ - قالت هي بحدة للشبان- ربما عندكم تجدون

أمثالهن، أما عندنا فلا يوجد شيء من هذا! فلنذهب يا كايني من هنا، أما أنتم فسأريكم! وسرت مع جميلة وهي تتبختر أمامهم بشجاعة رافعة رأسها بوقار وهي تحرك كتفيها مهددة، ثم ابتسمت لي عندما ابتعدنا.

وكان في نفسي شيء من الكراهية والسعادة، وربما كانت تفكر: "إيه يا لك من شاب صغير ساذج! فإذا أردت أن أسمح لنفسي بالمعاصي فمن يمنعني ؟ ولو راقبتني كل الأسرة فلن تتمكن من حجز حريتي !"أما أنا في مثل هذه الحالة فكنت ألتزم الصمت. نعم لقد كنت أغار على جميلة ، وأتمنى لها الخير وأفتخر بها كزوجة لابني وافتخرت بجمالها، وطبعها الحر. كنت وإياها صديقين حميمين لا نخفي شيئاً عن بعضنا.

في مثل هذه الأيام في القرية كان عدد الرجال قليلاً. ولهذا استغل بعض الشباب المغرورين هذا الأمر، وأخذوا يتصرفون بجلافة مع النساء، وبوقاحة أحياناً، وبتهميش في أحيان أخرى: لماذا عليك أن تهتم بهن كثيراً؟! فلا يحتاج الأمر أكثر من أن تشير بإصبعك لإحداهن حتى تذهب معك حيثما شئت!

في يوم من الأيام، وأثناء العمل بجمع الحشائش، أخذ عثمان يحاول وبشتى الطرائق مع جميلة مشاكساً إياها. وعثمان قريب بعيد لنا. وكان ينظر إلى النساء كهؤلاء الشبان. و يعتقد أنه لا توجد امرأة تعصى عليه. أما جميلة فقد دفعت يده بشدة بعيداً عنها عندما مدّها مداعباً، ونهضت بسرعة من تحت الخيمة الصغيرة، التي تستفيء تحت ظلها بعض الوقت.

- ابتعد عني! قالت جميلة متأففة، وأدارت ظهرها باتجاه آخر

وهي تقول: وهل من الممكن أن ينتظر الإنسان منكم شيئاً آخر؟ إنكم كأحصنة الرعاة.

استلقى عثمان تحت «الشادر»، وحرك شفتيه اللتين بدا عليهما اللعاب باستخفاف.

- بالنسبة للقطة، إن اللحم المعلّق عالياً بعيداً عنها، تعتبره لحماً فاسداً... فما بك تكابرين، في حين أنه يبدو عليك أنك تريدين برغبة كبيرة، وتحاولين التظاهر بالرفض.

استدارت جميلة بحركة شديدة، وقالت:

ربما توجد الرغبة! ولكن المصير حكم علينا هكذا، وأنت أيها الأبله تضحك، سأبقى مئة عام زوجة لمحارب في الجبهة، ولن تظهر عندي رغبة في أن أبصق على أمثالك. أشعر بالتقزز لمجرد الحديث معك. كنت أرغب أن أراك، لو لم تكن الحرب، فمَنْ من النسوة كان بودها أن تتكلم معك!

- ولهذا أنا أقول! الحرب - أنت تعاندين نفسك بلا رجل يا عزيزتي! - ابتسم عثمان قائلاً: - إيه! لو كنتِ زوجتي لغردتِ على وتر آخر.

كان بإمكان جميلة أن تهجم عليه، وأرادت أن تقول له كلاماً قاسياً، ولكنها أحجمت عن ذلك. كانت تدرك أنه من الأفضل ألا تدخل في هذا العراك. فنظرت إليه نظرة احتقار وكره طويلة. ثم بصقت بتقزز. أخذت الشاعوب عن الأرض، وسارت بخطوات رزينة بعيداً عنه...

كنت أقف على العربة وراء الشبك، وعندما رأتني جميلة أزاحت بنظرها عني. كانت تفهم كم كنت حانقاً. وكنت أشعر أن

الاهانة وجهت لي أكثر مما كانت لها. لقد أساؤوا لي جداً، فعاتبتها بكلمات أليمة نابعة من القلب:

- لماذا تقتربين من أمثال هذا! وهل هم يستحقون أن تتحدثي إليهم؟

بقيت جميلة كئيبة حتى المساء المتأخر، وعلامات الغضب بادية عليها، ولم تتكلم معي كلمة واحدة، ولم تبتسم مطلقاً، كعادتها في السابق. وعندما كنت أوقف العربة، كانت تقوم على الفور بغرس الشاعوب في كومة الحشائش، وترفعها عالياً، وتقذف بها، محاولة إخفاء وجهها خلف الحركات المتكررة. كانت تقذف الحشائش بسرعة، وتتحول فوراً إلى الكومة الأخرى، والتي تليها بإنتاجية عالية. وهكذا كانت تمتلئ العربة بسرعة. وعندما كنت أستدير مغادراً المكان، كنت ألتفت إليها فأجدها تقف كئيبة دقيقة واحدة، وهي تتكئ على عصا الشاعوب، وهي تفكر بشيء ما، ثم تعود من جديد وبحيوية إلى العمل.

عندما قمنا بملء العربة الأخيرة، وقفت جميلة، وكأنها نسيت كل شيء يحيط بها في هذا الكون، وأخذت تنظر إلى شفق الغروب. وهناك خلف النهر، وعلى حدود سهوب كازاخستان، بدت وكأنها فوهة التوندير[1] المتوهج. وكانت الشمس في المساء قد هدأت، وغطت بعض أجزاء الحقل المحشوش، وذهبت تسبح بهدوء إلى خلف الأفق، وهي تلقي بوهجها إلى الغيوم المبعثرة في السماء، مرسلة خيوط أشعتها الأخيرة إلى السهل الليلكي، الذي أخذ يتموه في المنحدرات ببقع مظللة

[1] التوندير - نوع من الأفران المنزلية في تلك المنطقة وهي ذات فتحة دائرية، وهي مخصصة لتحضير الخبز، ويقال له في البلاد العربية (التنور). - (المترجم)

داكنة بين التلال. نظرت جميلة إلى الغروب بإعجاب هادئ، وكأنها تحلم حلماً أسطورياً، حتى أشرق وجهها برقة، وابتسمت شفتاها بنعومة الأطفال. وهنا كانت جميلة، وبهذا، تجيب عن ملاحظاتي، التي لم أصرح لها بها، وهي ما زالت في مرحلة التكون على لساني، فالتفتت نحوي وقالت بالنبرة نفسها، وكأننا نتابع الحديث.

- لا تفكر به يا عزيزي، يا له من إنسان..! فهل هذا بإنسان؟

- قالت جميلة باتزان، وهي تودع بنظرها الجزء الأخير المنطفئ من الشمس. تنفست الصعداء، وتابعت بتعقل: - من أين لهم أن يعلموا أولئك من أمثال عثمان ما يعاني الإنسان في قلبه؟ فلا أحد يعرف. وربما لا يوجد رجال قادرون على هذا في الدنيا.

وفي الوقت، الذي أخذت أدير فيه الخيول، هرعت جميلة راكضة إلى النسوة في الجانب الآخر من الحقل، وتراءت إلى مسامعي أصوات بهجتهم النسائية عند اللقاء. من الصعب القول: ماذا حصل لها؟ انقشعت بعض الهموم عن روحها، فعندما أخذت تنظر إلى الغروب. ومن الممكن، وببساطة، أنها شعرت بارتياح لأنها عملت بشكل جيد. جلست في العربة، وعلى أعلى نقطة فوق الحشائش، وتابعت بنظري جميلة، التي نزعت عن رأسها المنديل الأبيض، وأخذت تركض خلف صديقتها في الحقل، الذي تم حشّه عند ظل المغيب، وهي تفرد يديها عالياً. ومع الهواء أخذت تتحرك أطراف فستانها. وهنا، وفجأة، فارقني الغضب والكآبة: "وهل تستحق ثرثرة عثمان أن يفكر بها الإنسان مطولاً!".

- هيا! لننطلق! - قلت مسرعاً، وصفعت الهواء بسوطي مشيراً إلى الخيل بالانطلاق.

منذ ذلك اليوم، الذي عاقبني فيه رئيس المجموعة، قررت أن أنتظر أبي، حتى يقوم بقص شعري، وريثما يحضر قررت أن أكتب رداً على رسالة صادق. وهنا كانت عندنا أعراف أيضاً: الأخوة كانوا يكتبون الرسائل على اسم أبي، وموزع البريد كان يسلمها لأمي. أما قراءة الرسائل والإجابة عنها، فكانت هذه مهمتي. وقبل أن أبدأ بالقراءة، أعرف مقدماً ماذا كتب صادق، فكل رسائله تشبه بعضها، كالخراف في الحظيرة. كان صادق يبدأ رسالته بكلمات "أخبار الصحة"، ثم يعلن دون تغيير: "إنني أرسل هذه الرسالة عبر البريد إلى أقاربي، الذين يعيشون في تالاس الأبي المزدهر، ليد أبي الحبيب والعزيز جولشوباي...". ثم يوجه الكلام لأمي، ثم لأمه، ثم يخص الجميع حسب الترتيب بكلمات مختصرة. بعد هذا كان يوجه الأسئلة عن صحة وأوضاع بعض الشخصيات المعروفة في القبيلة، والأقارب المقربين. وكان صادق يكتب في نهاية الرسالة، وعلى استعجال: "وأهدي سلامي كذلك إلى زوجتي جميلة...".

بالطبع، عندما يكون الأب والأم على قيد الحياة، وعندما يكون الكبار المحترمون والأقارب المقربون في القرية بخير، فمن غير المستحب، أو من غير المعتاد، أن يذكر زوجته في البداية. أما أن يكتب لها رسالة خاصة، فهذا غير مريح، وحتى غير مستحب. وهكذا يعتقد ليس صادق وحده، بل كل رجل يحترم نفسه. وهنا من غير الضروري أن يشرح الإنسان هذا. فهكذا كانت الحياة في القرية، وهذه هي العادات، وهذا لا يجوز نقاشه، ولكننا، وبكل بساطة لم نفكر بهذا مطلقاً، ولم يكن لدينا وقت لهذا، فكل رسالة منتظرة كانت حدثاً مفرحاً لكل الأقارب.

لقد كانت أمي تجبرني على قراءة الرسالة عدة مرات، ثم كانت تأخذها وباهتمام كبير مع الدعاء الإلهي، وتضمها بيديها المرتجفتين إلى صدرها، وتحاول أن تمسك هذه الورقة في أحسن شكل وبارتباك كبير كأنها تمسك طيراً يحول الهرب والطيران منها، وحتى تتمكن أخيراً وبأصابع مرتجفة أن تطوي هذه الرسالة على شكل مثلث.

- آه يا أعزائي، سوف نحافظ على رسائلكم كحجاب! - قالت الأم بصوت يرتجف والدموع تنهمر من عينيها. - إنهم يقلقون على أبيهم وأمهم، وأقاربهم... نحن هنا لا ضير علينا، فنحن في المنزل، ماذا سيحصل لنا هنا في القرية؟. المهم أن نعرف كيف حالكم هناك؟ الحمد لله أننا نستلم منكم كلمة واحدة، أحياء، تعيشون، وهذا يكفينا. لا يلزمنا أكثر من هذا...

نظرت الأم مطولاً إلى الرسالة المثلث، ثم خبأتها في جراب جلدي، حيث كانت تخبئ كل الرسائل، ثم دست الجراب في الصندوق.

لو صادف الأمر وكانت جميلة في المنزل ساعة استلام الرسالة كانوا سيعطونها الرسالة لتقرأها أيضاً. وفي كل مرة عندما كانت جميلة تمسك هذا المثلث، كنت ألاحظ كيف كانت تسرع وهي تقرأ بسرّها وهي متعطشة. تقفز فوق المقدمة وما يخص الأقارب، وتجتاز الأسطر بسرعة بعينين متعطشتين. ولكن، ومع الاقتراب من نهاية الرسالة، كان كتفاها ينخفضان رويداً رويداً، وتنطفئ النار المشتعلة في وجنتيها. قطبت حاجبيها المستقيمين دون أن تقرأ الأسطر الأخيرة، وأعادت الرسالة إلى أمي بهدوء بارد، وكأنها تعيد ما كانت قد استدانته منها.

كانت الأم، كامرأة، تفهم على طريقتها مزاج الكنة، واجتهدت أن تفرحها قليلاً، وتحسن من وضعها، إذ كانت تقول لها وهي تعيد الصندوق إلى مكانه:

ماذا حلّ بكِ؟ بدلاً من أن تفرحي خمدتِ كلياً! أو تفكرين أنك وحدك قد ذهب زوجك إلى الجبهة؟ لستِ وحدك في المصيبة، فالمصيبة شعبية عامة، وعليك أن تصبري مع الشعب. وهل تعتقدي أنه يوجد أناس لا يعانون؟ فمن لا يعانين من غياب أزواجهن يعانين من غياب أبنائهن وأقاربهن.. عليك أن تحزني، ولكن عليك ألا تظهري هذا، وحافظي على هذا في نفسك!

صمتت جميلة، ولكن عنادها ونظراتها الحزينة كانت تقول: "إنكم لا تفهمون شيئاً، يا أماه!".

إن رسالة صادق جاءت هذه المرة من منطقة ساراتوف أيضاً، إذ كان يعالج آنذاك في المستشفى العسكري، وكتب صادق، عسى الله أن يعافيه ويعود في الخريف إلى البيت بسبب الإصابة. لقد كتب بهذا الخصوص سابقاً. وكلنا فرحنا بقرب اللقاء معه.

ولكنني لم أبق في ذلك اليوم في البيت، وذهبت إلى البيدر، وهناك كنت أنام عادة. لقد أخذت الخيل للرعي في منطقة الفصفصة وقيدتها، ولكن رئيس الكولخوز لم يكن يسمح برعي المواشي في منطقة الفصفصة، ولكن، حتى تكون الخيل عندي جاهزة وقادرة على الجر، فإنني خرقت النظام. وكنت أعلم أن المكان الممتاز للرعي هو في المنحدر. زد على ذلك أنه في الليل لم يكن أحد هناك، ولا أحد يعرف بهذا، ولكن في هذه المرة، عندما أعتقت الخيل وقدتها إلى المرعى، تبين أن شخصاً ما قد أطلق خيوله ترعي في المكان نفسه،

وعددها أربعة. أثار هذا حفيظتي، فأنا صاحب العربة ذات الحصانين، ولي الحق في أن أحتج. قررت، ودون جدال أن أطرد هذه الخيول القريبة إلى مكان بعيد من هنا، حتى يتعلم الوقح ألا يعيدها، وألا يقترب من المنطقة، التي هي حصتي، ولكن فجأة عرفت حصانين عائدين لدانيار، ذاك الذي تكلم معه رئيس المجموعة ظهراً. تذكرت أنه وبدءاً من نهار غد سوف نعمل مع دانيار في نقل الحبوب إلى المحطة. تركت أحصنته في مكانها، وعدت إلى البيدر.

اتضح أن دانيار كان هنا، وأنه كان لتوه قد انتهى من تشحيم العجلات في عربته، وأنهى الآن شد العزقات على المحاور.

- قل لي يا دانيار، أهذه خيولك في المنحدر؟ - سألته بهدوء.

التفت دانيار نحوي باتزان وقال:

- اثنين لي.

- والاثنين الآخرين؟

- هذان لتلك المرأة، جميلة، كما أعتقد. فمن هي بالنسبة لك، زوجة أخيك؟

- نعم، إنها زوجة أخي.

- إن رئيس المجموعة قد تركهم هنا، وطلب مني أن أشرف عليهم... - كم كان جيداً أنني لم أقم بطرد الخيول!

حلَّ الليل، وهدأ النسيم القادم من الجبل بعد الهزيع الأول، وفي منطقة البيدر هدأت الريح. أما دانيار، الذي جلس بالقرب مني، تحت أكداس القش، فنهض من مكانه بعد وقت قصير، وذهب باتجاه النهر. توقف على مسافة قريبة عند انكسار النهر، حانياً رأسه إلى كتفه. وقف وهو يدير ظهره نحوي. أما قامته الطويلة، ورأسه الكبير

فوق كتفيه، فقد ظهر في هذه الليلة القمرية الهادئة وكأنه نحت ببلطة فنان مبدع، وكان يصغي إلى خرير المياه في النهر، الذي يزداد ضجيجه مع هزيع الليل، ولاسيما في المنحدرات. ومن الممكن أنه كان يصغي إلى أصوات وقرقعات لم أسمعها من مكاني. "ربما فكر أن ينام بالقرب من النهر. يا له من شخص غريب!" - ضحكت قليلاً.

ظهر دانيار منذ فترة وجيزة في قريتنا، إذ جاء ولد إلى منطقة الحشائش وهو يقول: إن شاباً مجنداً جريحاً قد جاء إلى القرية، ولم يعرف من أين؟ ومن هو؟ آه، كم كان شيئاً كبيراً أن يعود إلى القرية شخص ما من الجبهة! فكانت تهرع كل القرية من صغيرها حتى كبيرها، وكل يركض من جهته لينظر مَنْ القادم. يسلمون عليه مصافحة، وكل يسأل عن قريبه، ويسمع ما يرويه عن الجبهة والمعارك. وهنا ظهر صراخ وضجيج: من الممكن أن يكون أخي قد عاد، وربما صهرنا؟ وهرع الحصادون ليعلموا حقيقة الأمر.

اتضح أن دانيار كان مواطناً قديماً من منطقتنا، ومن مواليد القرية. ويحدث الناس أنه في الطفولة بقي يتيماً، وتسكع ثلاث سنوات في ساحات القرية وبيوتها ليؤمن لقمة العيش، ثم ذهب إلى كازاخستان، إلى حقول تشاك ماك، وكان الكازاخ أقرباءه من جهة أمه. ولم يكن له أقرباء مقربون هنا حتى يعود الصبي إليهم. وهكذا نسي الناس موضوعه، وعندما كان يسأله الناس، كيف عاش بعد أن ترك القرية؟ كان دانيار يجيب بعدم وضوح أحياناً، ومراوغاً مرات أخرى. وعلى أي حال كان من الممكن أن يفهم الإنسان أنه وبصعوبة كان يحصل على لقمة العيش، وعرف حياة اليتم مرتين، فكانت الحياة تطارد دانيار صانع اللباد إلى كل الأصقاع. فعمل مدة طويلة

برعي الأغنام في منطقة سبخة تشاك ماك. وبعد أن كبر، كان يقوم بشق القنوات في الصحراء. وعمل في السوفخوزات المتنقلة. ثم عمل في مناجم أنغرين بالقرب من طشقند. ومن هناك التحق بالجيش.

استقبل الأهالي عودة دانيار إلى قريته الأم بترحيب. مهما تقاذفته الأقدار إلى مختلف الأماكن، فقد عاد. هذا يعني أن له نصيباً في أن يشرب من القناة الأم. وهو لم ينس لغته في الطفولة، فيتكلم بالكازاخية بطلاقة مع لكنة بسيطة.

إن "تولبار"[1] يجد حقل رعيه خلف ثلاثة أتساع المعمورة. فمن لا يغالي بموطنه ويحب شعبه؟! وها هو دانيار عمل خيراً عندما عاد إلى موطنه. "ونحن مسرورون لهذا، وكذلك أرواح أجدادك. وها نحن - وعسى الله أن نقضي على ألمانيا - سنعيش بسلام، وستكون أنت كالآخرين، ستتزوج وتكوّن أسرتك، وستبني بيتاً لك ولأولادك على أرض موطنك!". هكذا كان يقول له العقلاء من كبار السن.

أما هم فيتذكرون أجداد دانيار، وكانوا يؤكدون انتماءه لسلالة محددة. "وهكذا ظهر في قريتنا قريب جديد من سلالة دانيار، الذين عاشوا هنا قديماً".

وهكذا قام رئيس المجموعة أرزومات بتعريفنا عليه عندما كنّا نقوم بجمع الحشائش. وكان دانيار شاباً طويلاً، عريض المنكبين، يرتدي بزة عسكرية، يعرج من إصابة في رجله اليسرى. توقف دانيار قليلاً، ثم خلع معطفه العسكري، وألقى به على الأرض. سار عدة خطوات بصورة متقطعة، محاولاً ألا يقصر عن سير حصان أرزومات، الذي كان يغيّر نقل قوائمه حسب طبيعة الأرض. أما بالنسبة لرئيس

[1] تولبار: حصان سباق أسطوري.

المجموعة، فكان إلى جانب دانيار الطويل يبدو قصيراً جداً. وكان يشبه من حيث كثرة حركته طائر الشنقب النهري، حتى ابتسم الشباب بأريحية.

أما بالنسبة لساق دانيار، فهي ما زالت في طور العلاج، ولا تطوى عند الركبة كما يجب. ولهذا لم يتم تكليفه بالحصاد، وتم إرساله إلينا، مع مجموعة جمع الحشائش. وأقول صراحة: إنه لم يعجبنا للوهلة الأولى. في الدرجة الأولى بسبب انطوائه على نفسه. كان دانيار يتحدث قليلاً وبصورة مقتضبة. وكان يشعر محدثه وكأنه يقول عكس ما يفكر به. ومن الصعب أن يتفهم الإنسان خلفية تفكيره، ولا تفهمه أحياناً. ينظر إليك وتعتقد أنه لا يراك، رغم أنه ينظر إليك مباشرة، ولا يوجد حولٌ بعينيه الحالمتين والغارقتين في التفكير.

- يا له من شاب مسكين، يبدو أنه لم يستعيد قدرته بعد الجبهة! - كان الناس يتحدثون عنه باستمرار.

أما الممتع في الأمرّ، فعلى الرغم من هذا الصمت الدائم، والتفكير المطبق، كان دانيار يعمل بسرعة، وبدقة. وكان يبدو في بعض الأحيان أنه منفتح ولا تعقيد في حياته. ربما أن طبيعة اليتم في صغره بكل مصاعبها قد علمته أن يكون منغلقاً على ذاته، وأن يخفي مشاعره وأفكاره، وكوّنت في عالمه هذا الانغلاق. ربما، هذا هو السبب.

أما شفتاه الرقيقتان مع التجاعيد القاسية على جانبي فمه، فقد كان دانيار يطبقهما تطبيقاً كلياً، وعيناه تنظران بحزن دفين وبهدوء كلي. وفقط كان له حاجبان مرنان في الحركة، وهما الشيئان الوحيدان اللذان كانا مصدراً للحيوية في وجهه الهزيل المتعب دائماً.

وكان يبدو عليه في بعض الأحيان الحذر الشديد، وكأنه سمع شيئاً ما لم يسمعه الآخرون مطلقاً. وعند ذلك كان يستنفر حاجبيه وتشع عيناه بإعجاب غير مفهوم. وبعد ذلك كان يبتسم طويلاً. والغبطة تساوره لسبب ما. كل هذا بدا لنا شيئاً غريباً. وليس هذا فقط، بل كانت لديه عدة ميزات غريبة. البارحة قمنا بحلّ الأحصنة من عدة عربات، واجتمعنا عند الخص، وانتظرنا حتى تنهي الطباخة تحضير الطعام. أما دانيار فقد صعد إلى تلة الحراسة[1] المرتفعة، وجلس هناك حتى عمّ الظلام.

- ماذا يعمل هناك؟ هل تم تعيينه للاستطلاع؟ ضحكنا جميعاً.

وذات يوم، ذهبت بدافع الفضول خلف دانيار إلى التلة. وهنا لا يوجد أي شيء غريب أو يثير القلق. كانت الأراضي منبسطة أمام الجبل فسيحة. وقد غطتها ضبابية ليلكية. وبدت الأراضي الداكنة المبهمة قد انسجمت مع الهدوء كلياً.

لم ينتبه دانيار إلى قدومي: كان يجلس مطوقاً ركبتيه، وهو ينظر إلى نقطة محددة أمامه، وهو غارق في التفكير، ولكن نظراته كانت مشرقة. وبدا لي الأمر وكأنه يصغي كلياً وبكل حواسه إلى أصوات لم تصل إلى مسامعي. وأحياناً كان يتحفز حذراً، ويجمد في مكانه، وهو يفتح عينيه على وسعهما. ثمة شيء ما كان يزعجه. وبدا لي أنه سيقف بعد قليل وتنفرد أسارير وجهه، ولكن ليس أمامي. إنه لم يلحظ قدومي، بل أمام شيء هائل عظيم لا تراه العين المجردة من جانبي. ثم نظرت إليه من جديد، فلم أعرفه: جلس دانيار كئيباً وحزيناً، وكأنه يجلس متعباً بعد العمل بكل بساطة.

[1] تلة الحراسة - جبل مرتفع، يستخدم أحياناً للحراسة والمراقبة، حيث يصعد الحارس إليه ويرى المنطقة من حوله، واستخدم هذا المصطلح عند القرغيز من أيام غزوات البدو الرحل.

أما جامعو الحشائش في كولخوزنا، فهم منتشرون حسب وجودها على ضفاف نهر كوركور. وعلى مسافة غير بعيدة من هنا، ينطلق نبع نهر كوركور من تصدع جبلي هائل، ويتدفق الماء عبر الوادي، الذي حفره عبر تاريخه الطويل في سيل عارم، وهو يزمجر بصوت مرتفع. فوقت الحصاد هو الوقت، الذي تفيض فيه أنهار الجبال. فمنذ المساء أخذت المياه تصل معكّرة، ومن فوقها تنتشر الرغوة سميكة، واستيقظت في منتصف الليل وأنا في الخص على صوت خرير المياه القوي في النهر. وكانت الليلة هادئة صافية تنظر بنجومها إلى الخص، وكان يأتي في بعض الأحيان نسيم بارد، ويعم الأرض النائمة. وفقط النهر الهادر، المتقدم بسرعة، بدا وكأنه يهددنا. ومع العلم أننا كنا بعيدين نسبياً عن ضفته، إلا أننا كنا نشعر في الليل وكأن المياه قريبة منا، وهذا ما جعلنا نشعر بالقلق والخوف: ربما يخرج النهر عن ضفافه، ويحدث فيضانات، ويحمل الخص، الذي أنا فيه كريشة خفيفة! أما رفاقي فقد كانوا نياماً، وهم يغرقون بعد العمل في نوم الحصادين العميق، أما أنا فلم أتمكن من النوم، وخرجت من الخص.

يا لها من ليلة جميلة ومخيفة في قبضة نهر كوركور! فهناك وهنا تصبح الخيول المقيدة فوق الهضاب أكثر سواداً من ذي قبل. لقد شبعت الخيول حتى النهاية من الحشائش الندية. والآن أخذت تقف في مكانها، وبعضها يستلقي، وكأنها تأخذ قسطاً من النوم اليقظ. وبالقرب ذهب نهر كوركور مكتوباً، وهو يرشق بمياهه الضفاف، ويقرقع بحجارته بأصوات مبهمة. وعم النهر المنطقة بصوت هديره المخيف، حتى أقض مضجع سكون الليل. لقد سيطر الرعب والخوف على كياني.

في مثل هذه الليالي كنت أتذكر دانيار. كان ينام عادة إلى جانب ضفاف النهر بالقرب من مرعى الخيل، فهل تراه لا يخاف؟ وكيف لا يفقد حاسة السمع من زمجرة صوت المياه في النهر؟ وهل بإمكانه أن يغفو، أم يبقى ساهراً؟ ولماذا ينام وحده على ضفاف النهر؟ وماذا يجد في هذا؟ إنسان غريب، كأنه ليس من هذا العالم. فأين هو الآن؟ أنظر من حولي لا أجد أحداً. لا أرى سوى التلال متدرجة تذهب بعيداً عن ضفاف النهر. وفي الظلمة تظهر قمم الجبال، فهناك في الأعالي يسود الهدوء وتلمع النجوم بصمت.

بدا الأمر، وكأنه حان الوقت لدانيار أن يكوّن الأصدقاء من حوله في القرية، ولكنه بقي كسابق عهده وحيداً، وكأنه كان من الصعب عليه أن يدرك مفاهيم الصداقة وضرورتها، والعداوة وأسبابها: الود، والحسد. ففي القرية يبرز الإنسان الجيد ويقدر، وبإمكانه أن يدافع عن نفسه وعن الآخرين. وبإمكانه أن يفعل الخير. وإذا لزم الأمر بإمكانه أن يفعل شيئاً من الشر. وهو الذي لا يتنازل للسيئين إن تصرفوا كما يشاؤون في الحوادث وعند الوفاة. ومن أمثال هذا يوجد عدد جيد بين النساء.

إذا كان إنسان من أمثال دانيار معزولاً عن المجتمع، ولا يتدخل في كل قضية تظهر في القرية، وفي كل يوم، فهناك البعض ممن لا يعيرونه أي اهتمام، وآخرون يقولون بسخرية:

- ليس لأحد فيه شأن لا ضرر ولا نفع. يعيش الفقير، ويمضي أياماً دون حساب، وبلا هدف، فدعه وشأنه...

فمثل هذا الإنسان يعتبر عادة مادة للسخرية أو للشفقة. ونحن الشباب الصغار نرغب دائماً في أن نتصرف كالكبار، حتى نكون

على درجة من المساواة مع الرجال الحقيقيين. بالطبع كنا نسخر من دانيار ليس في وجهه وبصورة مباشرة، ولكن بيننا. كنا دائماً نتناوله ضاحكين من تصرفاته، ومن تصرفات كل من كان يغسل قميصه بنفسه؛ يغسل سترته ويلبسها قبل أن تجف. فهي الوحيدة، التي يملكها وما تزال.

أما الأمر الغريب فهو أنه بدا وكأنه إنسان بسيط. وكان دانيار لا يسيء لأحد. ونحن لم نقرر أن نتعامل معه معاملة الند بالند. لا لأنه أكبر منا سناً، أو أن الفارق بيننا ثلاث أو أربع سنوات، فهذا لا نأخذه بالحسبان، ونتعامل مع أمثاله بصيغة المفرد[1] أي بأنت؛ وليس لأنه كان جدياً في علاقته مع الآخرين، وحاول أن يُظهِر نفسه مهماً، حيث يظهر أحياناً كرجل يستحق الاحترام؛ كلا، ففي الأمر شيء غير معروف. وذاب في هذا التفكير المتجهم المطبق. وهذا وحده جعلنا لا نسيء إليه، على الرغم أنه بإمكاننا أن نضحك أياً كان، وبسهولة.

وربما كان السبب لإحجامنا عن فعل هذا أن ثمة حدث قد حصل: لقد كان حب الفضول كبيراً لدي عندما كنت صغيراً. وغالباً ما كان الناس يضجرون من أسئلتي. أما توجيه الأسئلة للجنود، الذين كانوا في الجبهة، فقد كانت هوايتي المفضلة. وعندما ظهر دانيار عندنا في أيام جمع الحشائش، كنت أبحث عن فرصة حتى أعرف بعض الأمور من المحارب الجديد.

في مساء ذات يوم، بعد العمل، جلسنا حول الشعلة، حيث تناولنا طعام العشاء وأخذنا نستريح بهدوء، فقلت له:

---

[1] في اللغة الروسية تجري مخاطبة الغرباء، أو كبار السن بصيغة الجمع، فيقال أنتم بدلاً من أنت. - (المترجم).

- حبذا يا دانيك[1] لو تحدثنا شيئاً ما عن الحرب قبل أن نخلد إلى النوم.

التزم دانيار الصمت في بداية الأمر، وبدا عليه الانزعاج. نظر مطولاً إلى الشعلة، ثم رفع رأسه ونظر إلينا سائلاً:

- هل ترغبون أن أحدثكم عن الحرب؟ - وكان يسأل وكأنه يجيب نفسه عن أسئلته الخاصة. وأضاف بصوت خافت: كلا، من الأفضل لكم ألا نتحدث كثيراً عن الحرب!

بعد ذلك استدار، وأخذ غمراً من الحشائش اليابسة، وألقى بها على حافة الشعلة، وأخذ ينفخ على الشعلة حتى يشعل النار من جديد دون أن ينظر إلى واحد منّا.

لم يعد دانيار إلى الكلام ثانية، وأصبح واضحاً من هذه الجملة القصيرة، التي لفظها بالكاد أنه لا يجوز الكلام عن الحرب، حتى لا ينعكس هذا على النوم القادم. فالحرب كانت تغلي في أعماق القلب الإنساني، والحديث عنها مسألة صعبة. - شعرت بالخجل من نفسي، ولم أعد لسؤال دانيار مرة أخرى عن الحرب.

ولكن في هذا المساء غرق في عالم النسيان بسرعة، كما تلاشى الاهتمام بدانيار نفسه في القرية.

في اليوم التالي، وفي الصباح الباكر، أخذت الأحصنة مع دانيار إلى البيدر، وكانت جميلة قد وصلت لتوها، وأخذت تنادينا من بعيد، مجرد أن رأتنا:

- إي، كيتشينا بالا، أحضر أحصنتي إلى هنا! وأين هي ترعى؟ - أخذت تتكلم وكأنها عملت طوال حياتها على عربة، وأخذت تدقق

[1] تصغير من اسم دانيار. - (المترجم).

بانتباه على عجلات العربة، وتضرب عليها برجلها، حتى تعرف مدى شد العجلات بواسطة البراغي.

عندما اقتربنا منها مع دانيار بدا مظهرنا لها غير محبذ، فساقي دانيار الطويلتان النحيفتان، كانتا تستقيمان وكأنهما أصبحتا جاهزتين للعودة إلى الجزمة العسكرية الجلدية. أما أنا فأخذت أخاطب الحصانين وأحثهما.

- هيَّا، حان الوقت! قالت جميلة بمرح، ورفعت رأسها. ودون أن تضيع الوقت أخذت تطلق الأوامر لنا: تحركا بسرعة، علينا أن نجتاز السهوب قبل اشتداد الحر!

أمسكت جميلة الأحصنة من تحت المقودين، وقادتهما إلى العربة، وأخذت تشد العربة إليهما. لقد قامت بتجهيز الأحصنة، ووضع العدة عليها كما يجب. وكانت هذه المرة بمساعدتي، إذ طلبت مني أن أريها كيف يتم ذلك. ولم تطلب من دانيار أي مساعدة، وكأنه غير موجود بالقرب منها.

إن قوة إرادة جميلة، والتصميم القوي الصارخ عندها، جعلها تبدو أمام دانيار كرجل صنديد. مما أثار دهشته باستمرار. فنظر إليها ليس من باب التودد. وفي الوقت نفسه أحس بشعور خفي فيه شيء من الإعجاب، وأطبق شفتيه بغرابة فريدة. عندما رفع كيساً من الحبوب عن القبان، وسار به نحو العربة، التفتت جميلة إليه بصمت.

- كيف هذا، فكل شخص سيعمل لوحده ويعتني بقضاياه دون الآخر؟ من الصعب أن يحمل الواحد منا كيساً لوحده. كلا؛ هذا لا يصح يا صديق. هات يدك وسنحمل سوية! وأنت يا كيتشيني بالا، ماذا تنتظر؟ اصعد إلى العربة وضع الأكياس فوق بعضها!

أخذت جميلة يد دانيار بمحض إرادتها، وعندما شدّ كل منهما على يد الآخر سهل عليهما رفع الكيس وأن يقذفا به إلى العربة، ويرفعان كيساً بعد الآخر كما يفعل الرجال عادة، شعر دانيار المسكين بالخجل، وعمّ الاحتقان الأحمر وجهه. وهذا ما تكرر في كل مرة كانا يرفعان الكيس، ويشدان يداً بيد، ورأساهما يمسان بعضهما عند الانحناء. لقد رأيت كيف كان دانيار يتعذب، وكيف كان يعض على شفتيه، مجتهداً ألا ينظر إلى وجه جميلة. أما بالنسبة لجميلة، فقد كان الأمر لها سيان، وبدت وكأنها لم تلاحظ شريكها، وهما يقذفان بالأكياس عن القبان. وعندما امتلأت العربة، ووجهنا العربات نحو الطريق، قالت جميلة وهي تغمز بمداعبة، مبتسمة قليلاً:

- إيه أنت! ما اسمك، دانيار، أليس كذلك؟ فأنت رجل كما تبدو، خذ المبادرة وسر في المقدمة!

ومرة أخرى، وبصمت، سحب دانيار العربة من مكانها. "آه أنت يا مسكين، يا لك من بائس، وخجول أيضاً!" - فكرت أنا بصمت.

امتد الطريق أمامنا طويلاً: عشرون كيلو متراً في السهوب، ثم عبر المضيق، إلى المحطة. وثمة شيء جيد: منذ لحظة الانطلاق وحتى نهاية الطريق كان الطريق سهلاً مع شيء من الانحدار نحو أسفل الجبل، فلم تتعب الأحصنة.

أما قريتنا كوركور فقد امتدت على ضفة النهر على سفح الجبال العظيمة، وما دمت لم تخرج إلى المضيق، تبقى القرية مع قبب بيوتها الداكنة وأشجارها تحت وقع النظر.

تمكنا أثناء اليوم من القيام برحلة واحدة فقط. انطلقنا في الصباح ووصلنا إلى المحطة بعد منتصف النهار.

كانت الشمس شديدة الحرارة، وفي المحطة ازدحام كبير. ليس بإمكانك أن تخترق حشد البشر. وكانت السيارات المحملة بالأكياس قد وصلت إلى هنا من كل أنحاء الوادي. والعربات كانت تُجر بواسطة الحمير المنهكة والثيران من كولخوزات الجبال البعيدة. وكان الشباب الصغار والجنود في ثياب سوداء أو محترقة، وأقدامهم الحافية مهشمة من حجارة الطريق، وظهرت الدماء أيضاً من الشقوق على شفاههم من الحر والغبار.

وعلى باب "مجمع الحبوب" عُلِّقت لافتة: "كل سنبلة قمح إلى الجبهة!". وفي الساحة كانت الحركة كثيفة، والصدامات وأصوات العربجية شديدة. ومن جانب نوافذ التهوية المنخفضة بانت القطارات وهي تقذف دخانها الأسود الحار، وتنفث السخام الأسود المحترق إلى الأعلى. وبالقرب منّا كانت تمر القطارات وهي تصفر بشدة. بينما كانت الإبل تفتح أفواهها على وسعها وتطلق أصواتاً ملؤها الضجر والصبر في آن واحد. أما رغوة اللعاب فيتطاير من أفواهها معبرة بذلك عن شدة رفضها للنهوض عن الأرض.

في قسم استلام الحبوب، وتحت السقف الحديدي الملتهب، تكومت تلال من الحبوب. وكان من الضروري أن يتم حمل الأكياس على سلم خشبي مثبت فوق الحبوب إلى الأعلى، حيث لا يفصلها عن السقف إلا مسافة قصيرة. وكان هذا الازدحام الكبير يزيد الانحباس في التنفس، والغبار يعيق التنفس الصحي.

إيه أنت، أيها الشاب، انظر إلى أعلى نقطة - صرخ من الأسفل رجل يستقبل الحبوب، وكانت عيناه حمراوين من قلة النوم - إلى الأعلى؛ اسحب الأكياس إلى الأعلى، إلى أعلى نقطة! - ويهدد بقبضة يده اليمنى وينفجر بالشتائم أحياناً.

لماذا يشتم هكذا؟ فنحن نعلم أنه من الضروري أن نفرغ الأكياس في أعلى نقطة، فنحن نحمل هذا القمح على أكتافنا من الأرض، التي أعطته. وقد عملنا على زرعه وجمعه من قبل النساء والكهول والأطفال، حيث تحتدم الآن ساعات العمل الطويلة المضنية في هذه المرحلة: فالحصادات قد تعطلت وخرجت من الخدمة، وبقيت النساء منحنية بظهورهن فوق المناجل الحامية، والشباب الصغار يجمعون بمحبة وعناية كل سنبلة قد سقطت.

وأنا الآن ما زلت أذكر كم كانت ثقيلة تلك الأكياس، التي كنت أحملها على كتفي. وهذا العمل كان من الممكن أن ينفذ من قبل الرجال البالغين المجربين. ولكني كنت أسير حتى آخر نقطة، وأنا أحافظ على توازني فوق تلك الأخشاب، التي تتلوى تحت الأقدام، وأنا أمسك بشدة بأسناني على طرف الكيس، حتى أتمكن من الحفاظ عليه فوق ظهري، وحتى لا يقع من فوقي وأنا أتأرجح في أعالي تلة الحبوب. وفي حنجرتي كانت مرارة التراب، وأضلاعي كانت تتلوى ألماً تحت عبء الحمل. وأمام عيني أخذت تتكور دوائر شهباء تحت انعكاسات المصابيح. وكم من مرة كنت أصل إلى مرحلة الضعف النهائي في منتصف الطريق، وكنت أشعر بانزلاق الكيس من فوق ظهري تدريجياً. ورغماً عني كنت أرغب في أن أقذف به، وأن أتدحرج معه من فوق التلة نحو الأرض، ولكن الناس تسير من خلفي، وكلٌّ يحمل كيسه، وكلٌّ منهم من أترابي، وهم شباب يافعون مثلي، أو نساء للمحاربين في الجبهة، ولديهم أولاد شباب بعمري. فلو لم تكن الحرب، هل كان من الممكن أن يُسمَح لهن بحمل هذه الأكياس الثقيلة؟ كلا، لا أملك الحق في أن أتراجع، عندما تقوم النساء بهذا العمل، الذي أقوم به.

هـذه هـي جميلـة تسـير أمـامي، وهـي ترفـع فسـتانها إلى فـوق ركبتيهـا. وأرى كيـف تشـد العضـلات المفتولـة بعنـاد علـى سـاقيها السـمراوين الجميلتين. وكنـت ألاحظ كيـف تحـاول أن تضـغط بعنـف علـى جسـمها الطـري، وهـي تجمـع نفسـها كالنـابض تحـت الكـيس. وكانـت تضـعف جميلـة عنـدما كانـت تحـس بـأنني فقـدت قـدرتي مـع كل خطوة من خلفها، وهي تقول لي:

- اصمد كيتشيني بالا! بقي قليلاً حتى نصل إلى قمة الصبور!

كانت تشجعني، وصوتها أخذ يختفي من شدة الإعياء.

وعنـدما نفـرغ الحَـبَّ مـن الأكيـاس، ونعـود نـازلين، كنـا نلتقـي برفيقنا دانيـار مـا زال صـاعداً بالمرقـاة، وهـو يعـرج، بخطـا قويـة متزنـة. وعلى عادته: وحيداً صامتاً. وعنـدما كـان يجانبنـا، كـان ينظـر دانيـار إلى جميلة بكآبة، مع شيء من المرارة. أمـا هـي فكانـت تحـني ظهرهـا المتعب، وتسوي وضـع فسـتانها. كـان ينظـر إليهـا في كـل مـرة وكـأنه يراها للمرة الأولى. أما جميلة فتابعت العمل دون أن تركز اهتمامها به.

هكذا جرت العادة: إما أنّ جميلة كانت تبتسم له، أو أنها لم تعره أي اهتمام. وكـان يـرتبط هـذا بمزاجهـا. هـا نحـن نسـافر. أثنـاء الطريق، يخطر على بالها أن تصرخ لي: "هيا، امشِ!". وترفـع السـوط فوق رأسها فيلتوي إلى الأعلى، وتنطلق الأحصنة تعدو بسـرعة. وكـانت أحصـنتي تنطلـق خلفهـا فنلحـق بـدانيار ونسـبقه، تـاركين الغبـار الكثيـف مـن حولـه لفـترة مـن الـزمن. وعلـى الـرغم مـن أن هـذا كـان يتم من قبلنا للمزاح، كان من الممكن أن يثير غضب دانيـار، ويخرجـه عن طوره. أمـا هـو فلـم يبـد انزعاجـاً. كنـا ننطلـق مـن جانبـه وهـو ينظـر بتجهم فيه شيء من الإعجاب بجميلة، التي تقف على طول قامتها فوق

عربتها. كنت أنظر إلى دانيار فأجده ينظر إليها بأريحية على الرغم من الغبار الكثيف، الذي يغطيه مع أحصنته. وكان في نظراته شيء من الطيب المتسامح. وكنت أرغب في معرفة حقيقة هذا الحزن الدفين والعنيد في ذاته.

ولم يكن بمقدور ضحكات جميلة أو عدم مبالاتها الكلي أن يثير حفيظة دانيار ولو لمرة واحدة. وبقي على حاله، وكأنه أقسم قسماً عظيماً: أن يتحمل كل شيء. وفي بداية الأمر كنت أشفق عليه، وقلت لجميلة عدة مرات:

- لماذا تسخرين منه وتضحكين عليه يا جيني: فهو إنسان طيب ولا يسيء لأحد مطلقاً! فضحكت جميلة ولاحت بيدها، ثم قالت:

- يا له من إنسان...! فأنا قلت له وبكل بساطة ممازحة بأن لا شيء يحدث مع هذا الكيس الكبير لو قذف به!

وفيما بعد أخذتُ ألاطف دانيار بشيء من الضحك أكثر مما كانت تلاطفه جميلة. لقد أخذت نظراته المخيفة والعنيدة تقلقني. وكيف كان ينظر إليها، لاسيما عندما كانت ترفع بالكيس إلى الكتف! فكل هذا كان في واقع الأمر، وفي هذا الازدحام في هذه المحطة المكتظة، وبين هؤلاء البشر المتعبين المنهكين. كانت جميلة زهرة يانعة فريدة في عيون مَنْ شاهدها، وهي تسير واثقة بنفسها مع حركة من حركاتها الرشيقة وسيرها المتزن، وكأنها تتحرك في فضاء فسيح مدروس من قبلها.

وكان من غير الممكن لأي كان ألا ينظر إليها باهتمام، ولاسيما عندما كانت تسحب الكيس من العربة، كان عليها أن تشد نفسها وتنحني واضعة كتفها تحته وتبعد رأسها جانباً. وبهذا

كانت تبدو رقبتها الجميلة وضفائرها الرائعة الطويلة، التي كادت في كل انحناءة تلامس أطرافها الأرض. وهنا كان دانيار يتوقف، متصنعاً أمراً ما، ناظراً إلى جميلة حتى خروجها من الباب. وربما اعتقد دانيار أنه يفعل هذا دون أن يلاحظه أحد، ولكنني كنت ألاحظ كل تصرف من جانبه، ولم يعد هذا يعجبني، حتى بدأ الأمر يهين مشاعري إلى درجة أنني لم أرَ في شخصية دانيار ما يستحق الاهتمام من جميلة.

"إن مجرد التفكير بأن دانيار يختلس النظر إلى جميلة كان يغيظني، فكيف الأمر بالنسبة للغيرة من الآخرين" لقد كان كياني بأكمله يحتج، وبكل أحاسيسي وغيرتي الطفولية الأنانية، التي لم أتحرر منها بعد، وتشتعل كغيرة شديدة. فالأولاد غالباً ما يغارون على أقاربهم من الغرباء. وبدلاً من الشفقة على دانيار أخذت أشعر تجاهه شعوراً غير محبب، وأخذت انظر برضا عندما كان أحد ما يسخر منه وينظر إليه مبتسماً.

ولكن تصرفاتنا مع جميلة، انتهت ذات يوم بصورة حزينة، فبين الأكياس، التي ألقينا بها إلى عربة دانيار كان كيس كبير يحتوي سبعة بودات[1] تم نسجه من الصوف الصافي. وغالباً ما كنا نرفع هذا الكيس بشكل ثنائي، وبالكاد كنا نقدر على ذلك. ولم يكن بمقدور واحد منّا أن يرفعه لوحده. ولهذا قررنا ذات يوم أن نمازح دانيار ونضحك عليه. فقد وضعنا هذا الكيس الكبير على عربته، وفوقه وضعنا أكياساً أخرى. وأثناء الطريق مررت مع جميلة إلى قرية روسية، وأخذنا من إحدى الحدائق بعض التفاح. وكنا أثناء الطريق

[1] البود - وحدة الوزن زنتها 16.38 كغ.

نضحك باستمرار. كانت جميلة تقذف التفاح على دانيار طوال الطريق. ثم قمنا بإطلاق عنان أحصنتنا فسبقناه، وأثرنا حوله هالة كثيفة من الغبار. لحق بنا دانيار بعد المضيق، عند مفترق طرق السكك الحديدية: الطريق كان مغلقاً. ومن هنا وصلنا سوية إلى المحطة. وحصل أننا نسينا ذلك الكيس الكبير، وتذكرناه فقط عندما أنهينا التفريغ. دفعتني جميلة جانباً بحركة مشاكسة، وذهبت باتجاه دانيار. كان يقف على العربة وهو ينظر إلى الكيس، ولا يعرف كيف يتصرف. ثم أخذ ينظر من حوله، ولاحظ كيف كانت تقف جميلة، وهي تبتسم، فاحمرّ وجهه، وأدرك وقتها ما في الأمر.

- ارفع سروالك، وإلا ستفقده في الطريق! - قالت جميلة بصوت عالٍ.

نظر دانيار نحونا نظرة شريرة، ولم يسعنا الوقت للتفكير حتى رأيناه يحرك الكيس نحو نهاية العربة، ويضعه على جانب العربة. ثم قفز إلى الأرض، وأمسك بالكيس بيد واحدة، وألقى به على ظهره، وسار. في بداية الأمر اصطنعنا موضعاً، وكأن ليس في نيتنا أي شيء. والآخرون لم يلاحظوا أي شيء، فكل مشغول بعمله: سار الرجل حاملاً الكيس، فالكل يسيرون هكذا، ولكن عندما اقترب دانيار من السلم، هرعت جميلة راكضة نحوه:

- أنزل الكيس عن ظهرك، لقد كنت امزح معك!

- ابتعدي عني! - قال بصوت متهدج وصعد عبر المرقاة.

- انظر، إنه يحمله! إنه قادر على ذلك كما يبدو. - قالت جميلة بهدوء.

كانت تضحك ضحكة خافتة، ولكن ضحكتها بدت غير طبيعية، وكأنها كانت تجبر نفسها على الابتسامة بصورة مصطنعة.

لاحظنا كيف أصبح دانيار يعرج بشدة من رجله المصابة. وكيف أننا لم نفكر بهذا سابقاً؟ وحتى الوقت الحاضر لم أغفر لنفسي هذه المزحة الغبية. فهذا أنا بغبائي قد اختلقت هذه الطرفة المجنونة! وصرخت جميلة بصوت يشبه صوت الجريح:

- عد يا دانيار!

ولكن دانيار لم يتمكن من العودة، فكان يسير خلفه الناس حاملين أكياسهم.

لم أفهم شيئاً، ماذا حلّ فيما بعد؟ لقد رأيت دانيار كيف كان يخطو وهو منحني الظهر تحت الكيس الكبير، وقد ازداد رأسه انخفاضاً، وهو يعض على شفتيه. كان يصعد الخطوة بهدوء وحذر كبيرين، لاسيما عندما ينقل رجله المصابة. ويبدو أن كل خطوة جديدة كانت تسبب له ألماً شديداً، حتى أخذ يهز رأسه وتجمد في مكانه لثانية. وكلما كان يصعد عالياً عبر المرقاة كان يزداد تأرجحاً من جنب لجنب، وكان يأخذه الكيس يمنة ويسرة. لقد شعرت ببؤس وعار وخجل حتى جفت حنجرتي من المعاناة. جمدت في مكاني من الخوف، وشعرت بكل أحاسيسي عبء هذا الحمل. ومدى الآلام، التي تعذبه في رجله المصابة. ومن جديد تأرجح ثانية، ووقع على رأسه، وعندئذ عمّت الظلمة أمام عيني، وهربت الأرض من تحت قدمي.

عدت إلى الوعي عندما ضغط أحد ما بشدة وبقوة لدرجة كسر عظامي. لم أعرف جميلة مباشرة. لقد كانت بيضاء وصفراء جداً، وفي وجهها ظهرت حدقتان كبيرتان في عينين شاخصتين، بينما كانت شفتاها ترتجفان وترتعدان من الضحك، الذي كان قبل دقائق. وهنا لم نكن وحدنا إلى جانب دانيار، بل هرع كل من كان

في محطة استقبال الحبوب، واجتمعوا حول أسفل المرقاة. قام دانيار بنقل رجليه في خطوتين ثقيلتين. وأراد أن يثبت الكيس على ظهره. وبدأ يهبط تدريجياً على ركبتيه. وغطت جميلة وجهها براحتي يديها، وصرخت بصوت عالٍ:

- ارمي الكيس! ارميه!

ولكن دانيار، ولسبب ما، لم يسقط الكيس، رغم أنه كان بإمكانه أن ينزل الكيس إلى جانب المرقاة حتى لا يصيب أولئك الصاعدين خلفه. وهنا، وعندما سمع صوت جميلة قويت عزيمته، فشد ظهره، وثبّت رجله، وقام بخطوة أخرى. وهنا عاد إلى التأرجح من جديد.

- أسقط الكيس، كفاك مكابرة يا ابن الكلب! - صرخ مدير الاستلام، وصرخ الناس من حوله:

- اقذف الكيس، ارميه عن ظهرك.

بينما استطاع دانيار أن يعود لتوازنه هذه المرة أيضاً.

- كلا، لن يسقطه!. قال أحد الحاضرين بثقة أكيدة.

وبدا الأمر وكأنه قد انتهى؛ فأولئك الذين ساروا خلفه على المرقاة، وكذلك الذين كانوا يقفون في الأسفل، أدركوا جميعاً أنه لن يقذف الكيس ما لم يسقط هو والكيس. وحلت لحظات الصمت القاتل. وخلف الجدار من خارج المحطة جاءت صفارة القطار متقطعة.

وهنا تأرجح دانيار وكأنه قد فقد حاسة السمع. خطا إلى الأمام نحو القمة، وأخذ يحس بحرارة حديد السقف الحامي من فوقه، وهو يطأ بشدة على ألواح المرقاة حتى تنحني تحت قدميه. وبعد كل خطوتين كان يقف فاقداً توازنه، ليجمع قواه من جديد ويتابع صعوده.

أما أولئك الذين كانوا يصعدون خلفه، فقد حاولوا أن يقلدوه في المسير، وأخذوا يتوقفون كما يتوقف، ويخطون كما يخطو. وهذا أتعب الحمالين لدرجة كبيرة، ولكنهم لم يعربوا عن عدم رضاهم عن تصرفه. ولم يوجه أي أحد كلمة سيئة له. فكأنهم جميعاً مرتبطون بخيط خفي واحد، وقد ساروا تحت أحمالهم عبر هذه المرقاة الصعبة الملساء، حيث كانت حياة أحدهم مرتبطة بحياة الآخر، والآخرين. وفي صمتهم الواحد، وفي تأرجحهم المتشابه، كان إيقاع صعب وقاسٍ موحد. خطوة أخرى. وخطوة لدانيار، وخطوة ثالثة. وكم كان وقع هذه الخطوات، وكل حركة من دانيار صعبة وأليمة بالنسبة لزوجة المحارب، التي أخذت تصك على أسنانها وهي تسير خلفه! فقد أخذت ساقاه ترتجفان وترتعدان تحت عبء الحمل، ولكنها كانت تصلي من أجله.

بقي القليل، وقريباً سينتهي القسم الحامي من المرقاة. ولكن دانيار عاد للتأرجح في مكانه من جديد، ولم تعد رجله المعطوبة تنفذ ما يريده منها. وهنا لم يعد له إلا أن يهبط في أرضه إذا لم يرمي الكيس.

- اركض! ادعمه من الخلف! - صرخت جميلة وهي تأمرني بشدة، وقد فقدت هي حس المبادرة. ومدت يداها متضرعة، وكأنها بهذا ستساعد دانيار.

اندفعتُ صاعداً المرقاة، وأنا أبحث عن ممر بين الناس والأكياس. وصلت إلى دانيار. نظر إلي من تحت مرفقه، وبدت جبهته مليئة بالأوردة المنتفخة، وقد سال العرق في تجاعيدها السمراء، وشعرت بأن عينيه الجاحظتين قد أحرقتاني بنار غضبه. كنت أرغب في أن أمسك الكيس، وأرفعه قليلاً.

- ابتعد! - صرخ بي دانيار بصوت أبح، وقام بعدة خطوات إلى الأمام، حتى بلغ القمة.

عندما عاد دانيار نازلاً وهو يعرج ويتنفس بصعوبة، ويداه كانتا تلوحان إلى جانبيه كقطع خشبية. وابتعد الجميع عن طريقه صامتين. أما مدير الاستقبال، فلم يستطع الصمت، فصرخ بشدة:

- ما بك أيها الشاب، هل جننت؟ ألست بإنسان؟ ألم أطلب منك أن تفرغ القمح حيث شعرت بالعجز في بداية المرقاة؟ ولماذا تحمل مثل هذه الأكياس الثقيلة؟

- هذا أمر يخصني. - أجاب دانيار بصوت منخفض.

بصق دانيار جانباً، وسار نحو عربته. أما أنا وجميلة فلم نجرؤ على رفع أعيننا إليه. لقد شعرنا بالعار، وغضبنا من أنفسنا لأن دانيار لم يدرك حقيقة الأمر، وتعامل مع مداعبتنا الغبية بشكل قريب إلى قلبه، واعتبرها شيئاً من التحدي والإهانة.

سرنا طوال الليل صامتين. كان الأمر بالنسبة لدانيار طبيعياً. ولذلك لم نكن نفهم ما إذا كان غاضباً منا، أم أنه نسي كل شيء. ولكننا شعرنا بالحنق من أنفسنا، فضمائرنا قد عذبتنا.

في الصباح، عندما أخذنا نحمّل العربات في البيدر، تقدمت جميلة وأمسكت هذا الكيس المسبب لكل هذا، وداست على جانبه ومزقته كلياً.

- خذي هذا الكيس اللعين! - قالت جميلة هذا، وقذفت بالكيس تحت رجلي عاملة القبان. - وبلغي رئيس المجموعة ألا يدس مثل هذا الكيس مرة أخرى بين الأكياس!

- ماذا حلّ بكِ؟! ما الذي حدث لك يا جميلة؟

- لا شيء، اتركني وشأني!

طيلة النهار التالي لم يظهر دانيار غضبه، ولا بأي صورة كانت. كان يقف باستقامة، وبصمته المعتاد. إلا أنه كان يعرج بدرجة أكثر من قبل، ولاسيما عندما كان يحمل الأكياس. يبدو أن إصابة البارحة قد حرضت الآلام. وكان هذا يذكرنا باستمرار بالخطأ، الذي ارتكبناه بخصوصه. فحبذا لو أنه ضحك أو قال طرفة، كان بإمكاننا أن نرتاح قليلاً. وبهذا كان من الممكن لصمتنا القاتل أن ينتهي.

أما جميلة فقد التزمت موقفاً، وكأنه لم يحصل أي شيء غير عادي. فهي امرأة عنيدة بغض النظر عن أنها ابتسمت أحياناً، ولكنني رأيت كيف كانت طوال النهار على غير طبيعتها.

عدنا في المساء متأخرين من المحطة. كان دانيار يسير بعربته في المقدمة. أما الليلة فقد بدت رائعة. فمن لا يعرف ليالي آب الجميلة بنجومها، التي تبدو بعيدة وقريبة في آن واحد لروعتها وحسن طلعتها، وإشعاعها البهي؟! كل نجمة تظهر بلا تخفٍّ، فهذه واحدة منهن بدت وكأنها معلقة من أطرافها. وأخذت تلمع بضوء جليدي رائع، وهي تنظر إلى الأرض بعجب كسول من السماء الداكنة. أخذت الخيول تجتاز المضيق. وكنت أنظر إليها بلا انقطاع. أما الأحصنة فقد أخذت تسرع المسير بكل جهدها، راغبة بالوصول إلى البيت. وتحت العجلات كانت تقرقع الحصى أحياناً، وتصطك أحياناً أخرى. وجاءت الريح من السهوب حاملة غبار الطلع المرّ لنبات الشيح المزهر في هذه الأيام. ومع هذا كان يصل إلى الأنف أحياناً عبير الجودار، الذي أخذ ينضج. وكل هذا كان يختلط مع رائحة القطران، وعرق الخيول. وكان هذا الخليط يبعث الدوران في الرأس قليلاً.

فمن جهة كانت تنمو على حافة الطريق شجيرات العليق، التي غطت الصخور المحاذية. ومن الجهة الأخرى، وعلى مسافة إلى الأسفل، كانت شجيرات الحور البرية. وبين الفينة والأخرى كانت تهب رياح كوركوري. وعلى مسافة بعيدة من هنا خلفنا كانت تسمع أصوات القطارات السريعة تعبر فوق الجسور، وينحسر صوت عجلاتها، التي تشكل إيقاعاً خاصاً بعيداً خلف التلال.

كان من الجميل أن يسافر الإنسان في الليل الرطب، وأن ينظر إلى ظهور الخيل المتموجة، وأن يتمتع بليالي آب، وأن يتنفس أريج نسيمها! كانت جميلة تمشي في المقدمة. تركت حبل قيادة الخيول، وأخذت تنظر من حولها وترنم أغنية بصوت خافت. لقد أدركتُ أنها ملّت، وضاقت ذرعاً من صمتنا. ففي مثل هذا الليل من غير الممكن أن يسكت الإنسان. والإنسان الطبيعي يحب غالباً الغناء في مثل هذا الجو الجميل.

وها هي أخذت تغني، وكان السبب في ذلك ربما رغبتها في عودة الجو الطبيعي في علاقتنا مع دانيار. وأرادت أن تبعد حقيقة خطئها معه، وتعيد جو صداقة العمل. وفعلاً كان صوتها يصدح في الليل الهادئ، جميلاً. وأخذت تغني أغنية طبيعية من أغاني الريف، وعنوانها كما أعتقد "ألوح لك بمنديل الحرير". وكانت جميلة تعرف وتحفظ الكثير من الأغاني مثل: "في الطريق البعيد يا حبيبي"، وتغنيها بذوق ولحن جميلين، لاسيما أنها كانت تتفاعل مع كلماتها، وكان من الممتع أن يسمعها الإنسان. وفجأة توقفت عن الغناء، ونادت دانيار: - إيه أنت، يا دانيار. أسمعنا أغنية ما! أأنت فارس، أم ماذا؟

تابعي يا جميلة، استمري بالغناء! - أجاب دانيار بخجل دون أن يوقف الخيل - إنني أستمع إليك، ولقد أطربتي أذني بحدة!

- أتعتقد أنه ليس لدينا آذان؟ أنت وشأنك. إذا كنت لا تريد أن تغني، فليس من الضروري! - وعادت جميلة إلى الغناء من جديد.

فمن يعرف لماذا طلبت جميلة من دانيار أن يغني؟! ربما كانت ترغب في أن تبعده عن الكآبة؛ وربما أرادت أن تبادر بالحديث معه؟ وعلى الأرجح، كانت ترغب بالحديث معه، لأنها، وبعد مرور بعض الوقت، عادت من جديد وخاطبته:

- قل لي يا دانيار؛ هل أحببت في يوم من الأيام؟ - وضحكت قليلاً.

لم يجب دانيار بشيء. أما جميلة فقد التزمت الصمت.

"وجدت مَنْ تطلب منه الغناء!". - قلت ضاحكاً.

وعند النهر، الذي يقطع الطريق، أخذت الخيول تقرقع بحوافرها فوق حصى المجرى الفضية بحذر وهي تبطئ المسير. وعندما اجتزنا المخاضة، لسع دانيار الأحصنة بسوطه، وفجأة أخذ يغني، وبدا صوته الرخيم يشق عباب الليل، متقطعاً حسب عدو الخيل:

آه، يا جبالي الزرقاء البيضاء

آه، يا أرض أجدادي وآبائي!

فجأة تعثر في غنائه، وغنى الشطرين اللاحقين بنبرة صدرية دفينة، مع شيء من البحة الحزينة:

آه يا جبالي، يا جبالي الزرقاء البيضاء

يا مهد طفولتي ...

وهنا توقف ثانية، وكأنه خاف من شيء ما، وصمت.

لقد تصورت نفسي على عجل وبحيوية كيف ألمّ به الخجل. وحتى في هذا الغناء البسيط المتقطع كان هناك شيء غير اعتيادي،

فيه شيء كبير من المعاناة، وحتى صوته بدا فيه شيء من المتعة البعيدة عن الاستيعاب أن هذا الذي يغني هو دانيار.

- انظري! - قلت معجباً بصوته.

أما جميلة فقد قالت له:

- لماذا أخفيت نفسك كل هذه المدة؟ فأسمعنا، أسمعنا غناءك كما يجب!

بانت أمامنا علامات النور: لقد خرجنا من المضيق إلى البقاع. ومن هناك جاء نسيم رطب عليل، فأخذ دانيار يغني من جديد. وباشر الغناء بشيء من الخجل، وبشيء من الارتباك. ولكن صوته أخذ يزداد شيئاً فشيئاً حتى ملأ المضيق، فأجاب الصدى من بين الصخور البعيدة.

لقد أعجبت جداً بالعشق الدفين الملتهب في حنايا هذا الرنيم الشفافة. لم أعرف ماذا أسمي هذا، وحتى الآن لا أعرف. أو بالأحرى كيف لي أن أحدد ما إذا كان هذا مجرد صوت جميل، أم أنه شيء أكثر أهمية، لاسيما تلك النبرة، التي تخرج من روح الإنسان. هذا الشيء، هذه النبرة، التي بإمكانها أن تبعث في عالم الآخر شيئاً من التفاعل، وأن تنبت في أعماقه أروع الأفكار وأجملها.

لو كان بإمكاني، ولو لدرجة ما، أن أعيد غناء أغنية دانيار! ولكن للأسف كلماتها قليلة جداً. وفي هذا يكمن السر: إنها بلا كلام قادرة على أن تفتح الروح الإنسانية وتحلق بها عالياً. وأنا قبل هذا، ولا حتى فيما بعد، لم أسمع مثل هذه الأغنية، ولم أجد في اللغة القرغيزية ولا الكازاخية لحناً مثيلاً، بل كان فيها هذا وذاك. فلحن دانيار قد تضمن في طياته أجمل الألحان الإيقاعية للشعبين القريبين، ومزج فيما بينهما بطريقة خلاقة، حتى ظهرت تلك الأغنية، التي

لا شبيه لها. فكانت هذه أغنية الجبال والسهوب. كانت نبراتها تصدح عالياً مع الجبال، وتطير فوق جبال قرغيزستان. وتهدأ إيقاعاتها تدريجياً، كهدوء سهوب كازاخستان واتساعها.

كنت استمع، وأعجب به إعجاباً كبيراً. "هذا هو إذاً. هذا هو دانيار على حقيقته! من كان بإمكانه أن يكتشف هذا؟".

كنا قد قطعنا مسافة في السهوب، وأصبح الطريق أكثر نعومة، وليس فيه كثير من العثرات، فأخذ دانيار يغني منفتحاً على اتساع صوته المنسجم مع اتساع السهوب، ويتحول من لحن إلى لحن بمرونةٍ نادرة، ويعطي كل أغنية حقها. يا له من إنسان! وهل حقاً هو غني لهذه الدرجة؟ ما الذي حصل له؟ وكأنه كان ينتظر يومه، وساعة انبعاثه!

وهنا أدركت أسرار الغرابة في عالمه، والتي كانت تثير لدى الناس مشاعر عدم تفهمه والسخرية منه أحياناً: غوصه في أحلام التفكير، وميله للانعزال والوحدانية، وصمته الأبدي.

وهكذا صار مفهوماً لي لماذا جلس طوال المساء فوق جبل الحراسة؛ ولماذا بقي وحيداً عند النهر في الليل؛ ولماذا كان يستمع وحيداً إلى بعض الأصوات، التي لا يهتم بها الآخرون؛ ولماذا كانت عيناه تشع بصفاء غريب في بعض الأحيان؛ وكيف كان حاجباه يتراقصان في لحظة إعجاب أو استغراب. كان إنساناً عاشقاً في أعماقه. وشعرت أيضاً أنه كان مغرماً حتى النهاية، ولكن غرامه ليس في إنسان آخر. إنه شعور بالعشق من نوع آخر؛ لا حدود له: للحياة، وللأرض. نعم، لقد حافظ على هذا الحب في أعماقه، وفي موسيقاه، وعاشها بكل أبعاد عواطفه وأحاسيسه. فلم يكن بإمكانه أن يكون إنساناً لا مبالياً، ولو كان كذلك لما غنى هكذا، ولو وُهِب صوت جميل.

وعندما بدا وكأن المقطع الأخير من الأغنية قد انتهى وانطفأ، انبعث صوت رائع وقوي، وكأنه يوقظ السهوب النائمة؛ وهي بدورها أخذت تستمع للمغني شاكرة، وهي تتمتع باللحن، الذي يطربها ويمجدها، لاسيما أنه صوت ولحن واحد من أبنائها. وأمام الناظر انبسطت السهول الفسيحة، وفوقها يتموج القمح، الذي أخذ ينضج متعطشاً للحصاد، والذي بان عند الصباح الباكر ذو جمالية خاصة، وكأنه قد توشح ببعض البياض، الذي يشير للنضوج. وهنا كانت تنتصب مجموعة من أشجار الصفصاف بالقرب من المطحنة، وهي تلوح بأغصانها وأوراقها الكثيفة. وخلف النهر كانت تحترق شعل السقاة. ومن هناك بان إنسان ما كالظل، وأخذ يعدو بلا صخب في الجانب السفلي من الضفة، ونحو القرية، وكان يختفي أحياناً بين البساتين، ويعود للظهور من جديد. وحمل الهواء معه أريج التفاح، وتظهر الذرة، التي نثرت زهورها البيضاء كالحليب الناصع البياض، وكذلك كانت رائحة مخلفات الحيوانات (الطبابيع)، التي أخذت تجف.

... صدح صوت دانيار رائعاً جميلاً لمدة طويلة. عمّ الهدوء في إحدى ليالي آب، وأخذت تستمع إليه بإعجاب، وحتى الخيول هدأت وأخذت تسير بخطوات متزنة وهادئة، وكأنها كانت تخاف إذا أسرعت أن تسيء إلى إيقاع اللحن الجميل ...

وفجأة، وعندما كان دانيار يغني بأعلى نوتة في حنجرته الرنانة قطع متابعة الأغنية، وصرخ في الأحصنة، فانطلقت تعدو بأقصى ما لديها من سرعة.

اعتقدت أن جميلة سوف تنطلق بسرعة خلفه، وهيأت نفسي لذلك، ولكنها لم تتحرك أو تغير من مسيرها، وبقيت كما كانت

جالسة بهدوء، وهي تحني رأسها على كتفها، وكأن شيئاً لم يتغير. وتابعت تصغي بشغف إلى بقايا صدى يتردد في الهواء، بعيداً بين حنايا الجبال، ولم ينطفئ بعد. ابتعد دانيار، وبقينا على صمتنا حتى وصلنا إلى القرية، ولم ننبس ببنت شفة. وهل كان من الضروري أن نتكلم؟ فالكلمات لا تعبر في كل الأوقات عن جوهر الأمور....

ومنذ هذا اليوم كأن شيئاً مهماً في حياتنا قد تغير، فأصبحت أنتظر دائماً شيئاً جميلاً وممتعاً. فمنذ الصباح أخذنا نحمل العربات في البيادر ونذهب إلى المحطة. لم نعد نستعجل أمورنا للعودة بسرعة، ولكننا أخذنا ننتظر ساعة العودة حتى نستمع لأغاني دانيار. لقد زُرِع صوته في داخلي، وكان يرافقني في كل خطوة أخطوها: كنا في كل صباح نهرع مسرعين بين النباتات الندية فوق الهضاب متجهين إلى الأحصنة المقيدة. وكانت الشمس تبتسم لنا، وهي تبزغ مرتفعة من خلف الجبال للقائنا بصفاء. كنت أستمع لهذا الصوت من خلال حفيف السنابل الذهبية، التي تموجت مع النسيم، عندما يقذف بها الرجال المجربون بشواعيبهم. وفي هذا الخضم من الموج الهادئ، لجزء وحيد في السهول الفسيحة، وفي كل ما رأيت وسمعت، كانت تصدح في عالمي ألحان دانيار الرائعة.

وفي المساء، عندما مررنا من المضيق، كان يراودني إحساس غريب، وفي كل مرة، بأنني أنتقل إلى عالم آخر. كنت أستمع إلى دانيار واضعاً يديّ على عينيّ. وكانت تبرز أمامي لوحات رائعة معروفة وقريبة منذ الطفولة: تلك الغيوم، التي كانت تشكل في السماء لوحة كسرب من القطا، وبدت فوق السهوب داكنة، زرقاء ناعمة؛ وتلك الخيول الصغيرة، وهي تنطلق مسرعة، تدك الأرض بحوافرها بصخب

عجيب، وهي تصهل بأصواتها الجميلة، رافعة رؤوسها عالياً، والشعر مسترسل على رقابها يداعبه الهواء، وعيونها السوداء واسعة بارقة تلمع بزهو وهي تركض فخورة إلى الأمهات؛ وقطعان الأغنام كثيرة العدد تموج بهدوء على الهضاب المحاذية للجبال؛ أو لوحة تلك الشلالات المتصببة من فوق الصخور وهي تبهر العيون ببياضها الرائع من خلال القطرات المتناثرة؛ وأحياناً كانت تبرز لوحة أمامي كيف كانت تختفي خيوط الشمس الأخيرة عند المساء خلف النهر بكل هدوء، وأحياناً صورة خيال وحيد يقطع الفيافي على خلفية لوحة الأفق الأحمر. وتخيلت نفسي وأنا أعدو خلفه، وتصورت لو كنت مكانه فوق ذلك الحصان لأتناول الشمس، التي بدت خلفه مباشرة بيدي، واختفى بعد قليل في الضباب وبين الناميات على أطراف المخاضة، عند الغسق.

بدت السهوب الكازاخية فسيحة وبلا نهاية خلف النهر. واتسعت جبالنا منفرجة على كلا الجانبين. وها هي جبالنا تقف شامخة عابسة لغياب البشر الأهل عنها...

وفي هذا الصيف الفريد، والذي يتذكره الإنسان طويلاً، عندما نشبت الحرب، اندلعت النيران في السهوب، التي خيم عليها الغبار الدافئ، الناجم عن حوافر الخيول وهي تعدو جامحة وتنتشر في كل الاتجاهات. وأذكر كيف صرخ عند تلك الضفة فارس كازاخي من فوق صهوة حصانه بصوت راعٍ جهوري:

- اجلسوا أيها القرغيز فوق سروج خيولكم. ها هو العدو قد اقترب منّا! وانطلق الجمع يعدو بعيداً وسط زوبعة من الغبار، وفي تموجات السراب ليوم حار.

لقد أقامت الحقول الناس، ولم تقعدهم. وفي ضجيجٍ احتفاليٍّ

مدوٍّ رهيب انحدرت من صوب الجبال الفيالق الأولى، التي انطلقت من منطقتنا نحو الوادي. وتعالى رنين آلاف الرّكب، وانطلقت جحافل آلاف الفوارس الناظرين بعيداً إلى السهوب. وأمام الفيالق، ارتفعت على سوارٍ عالية من الخشب البيارق الحمراء خفاقة زاهية، وخلفهم وإلى ما وراء الغبار الكثيف ارتطم بالأرض نحيب النساء الهائل: زوجات وأمهات وأخوات وبنات وشقيقات، وهن يرددن "لتكن أرضنا خير معين لا ينضب لكم، ولتساعدكم روح بطلنا العظيم ماناس!".

ومن هناك حيث سار الشعب إلى الحرب، بقيت خلفهم طرقات خالية حزينة...

وقد فتح دانيار أمامي في أغانيه كل ما في الأرض من جمالية رائعة ومآسي مقلقة. فأين درس كل هذا؟ وممن تعلم هذا الفن؟ وأدركت أنه بإمكان الإنسان، الذي يحب أرضه هكذا كدانيار أن يبلغ هذه الدرجة من الحب لبلاده عندما يعيش مغرماً بها لسنوات طويلة بكل جوارحه، لاسيما أولئك الذين يعانون ويعيشون هذا الحب حتى العشق الأبدي. عندما كنت أسمع غناءه، كنت أرى فيه شبابه المبكر، ولداً فتياً يعدو فوق حصانه عبر الطرق المتنوعة في أرضنا، وربما في ذلك الوقت بالذات تكونت في روحه الأغاني عن وطنه؛ وربما عندما كان يتخبط في نيران جبهات الحرب.

عندما كنت استمع إلى أغاني دانيار، كان يغمرني شعور في أن أهبط إلى الأرض وأضمها إلى صدري كما يضم أي ابن أمه كأي ابن من أبنائها، وفاء لها على عظم سرها، الذي يكمن في تعليمها الإنسان أن يحبها هكذا. وعند ذلك، ولأول مرة، أحسست كيف استيقظت في كياني مشاعر جديدة. شيء جديد لم أعرف كيف

أسميه، ولكنه كان شيئاً لا ينفصل عن كياني؛ هذا كان شعور الحاجة في أن أعبر عن ذاتي، نعم، أن أعبر ليس لذاتي فقط، وأن أفهم وأحس بالعالم على حقيقته، بل للآخرين أيضاً. كم هي جميلة ورائعة أرضنا بالإلهام والإبداع الموجود عند دانيار! وكنت أتجمد من الرعب اللامحسوس، ومن الفرح أمام شيء مجهول وغير مدرك. ولكنني، وقتها، لم أفهم بعد أنه كان عليّ أن أمسك ريشة الفن بيدي لأرسم كل ذلك.

أنا أحبّ الرسم منذ صغري. وكنت أنقل بعض اللوحات من كتبي المدرسية، وكان زملائي يعربون عن إعجابهم، قائلين إنها "صورة طبق الأصل". كما كان يمتدحني المعلمون عندما كنت أعرض بعض الرسومات في المجلة الجدارية. ثم بدأت الحرب، وذهب أخوتي إلى الجبهة، وأنا تركت المدرسة، وبدأت العمل في الكولخوز كبقية الأولاد من جيلي، ونسيت الألوان والفراشي، ولم أعد أفكر أن أعود إليهم في يوم من الأيام. ولكن أغنيات دانيار أيقظت روحي. كنت أسير وكأنني في الحلم، وأنظر إلى العالم من حولي بعينين متفحصتين، وكأنني أرى كل ما يحيط بي لأول مرة.

كيف تغيرت جميلة فجأة! وكأنها لم تكن تلك الفتاة الشابة، التي تحب الكلام والمرح والضحك: فأخذ هدوء الربيع الفاعل ينعكس على عينيها الذابلتين. وأثناء الطريق كانت تنحني على نفسها وتفكر في شيء دفين في ذاتها، وعلى شفتيها تاهت ابتسامة خجولة ضبابية. وتظهر في عينيها أحياناً فرحة هادئة لسبب إيجابي، وهي وحدها تعرف سر أمرها. وكانت ترفع الكيس وتضعه على كتفها، وتقف في مكانها، إذ يغمرها شعور غير مفهوم، وكأنه يسير

من أمامها وادٍ صاخب، وهي لا تعلم: هل عليها أن تسير، أم لا تسير؟ أما بالنسبة لدانيار فقد كانت تبتعد عنه، ولم تنظر إليه في عينيه.

وذات يوم في البيدر قالت جميلة له بحزن معذب دفين:

- حبذا لو خلعت سترتك، وأعطيتني إياها لأغسلها!

وبعد أن غسلت السترة على ضفة النهر نشرتها فوق الحجارة الملساء لتجف، وجلست هي بالقرب منها طويلاً، وهي تدلكها براحتي كفيها. أخذت تنظر تحت ضوء الشمس كيف اهترأت السترة من كتفيها، وهزت رأسها، وعادت من جديد تدلكها وكأنها تمرر المكوى من فوقها بعناية. كانت تفعل كل هذا بهدوء وحزن.

فقط، مرة واحدة أثناء هذه المدة سمحت لنفسها أن تضحك بشكل مثير، وبرقت عيناها كسابق عهدها. أما في البيدر فكان الصخب ينتشر في كل مكان، وآلة الدراسة كانت تضج بشدة، والنساء والرجال من المحاربين القدامى يعملون بسرعة وحيوية.

- إيه! انظر أيها الباي! لست وحدك، الذي سيأكل خبز القمح. عليك أن تقدم ضيافة لنا. وإلا فسوف نقذف بالقمح إلى النهر! - قال الرجال مداعبين جميلة وقد غرسوا الشواعيب في كدس القمح. وأجابت جميلة بصوت رنان جميل:

- نحن لا نخاف من الشواعيب أيها السيد! فأنا سأجد ما أقدمه لضيافة الأصدقاء، وأنتم عليكم أن تفكروا ما هو الأفضل.

- إذا كان الأمر كذلك، عليكم جميعاً أن تلقوا بأنفسكم في الماء!

وهنا انطلق الشباب والفتيات، وعمّ الصراخ والضحك العالي، وأخذوا يدفعون بعضهم البعض إلى الماء. وهنا اعتلى صوت جميلة أكثر من الجميع وهي تقول:

- التقطوهم، اسحبوهم إلى هنا لنلق بهم إلى الماء! ، فالشباب لم يروا واحدة أخرى إلا جميلة. وكل منهم حاول أن يمسك بها، ويضمها لصدره، وأخيراً أمسك ثلاثة من الشبان بها على عجل، وأخذوا يلوحون بها فوق الماء، وهم يقولون:

- قبلينا، وإلا سنقذف بك إلى الماء!

وهنا جاء صوت شاب آخر وهو يقول: - لا تريد أن تقبلنا فلنلوح بها أكثر ولنقذفها إلى الماء.

- كانت جميلة تحاول أن تخلص نفسها، وهي تضحك، ورأسها يتدلى أحياناً وترفعه أحياناً أخرى، وتنادي صديقاتها لمساعدتها. ولكن الأخريات أخذن يركضن على ضفة النهر، وهن يلوحن بضفائرهن. وبعد مدة من الضحك الجماعي، قام الشبان بقذف جميلة إلى النهر. وبعد لحظات خرجت من الماء، وقد تبللت كلياً وانسدل شعرها على وجهها وكتفيها حتى بدت أجمل مما كانت عليه. والتصق ثوبها الرقيق المبلل إلى جسمها الرشيق كلياً، مبرزاً جمال وركيها المدورين، وكذلك الصدر النافر، أما هي فلم تعر اهتماماً لذلك. تابعت الضحك وهي تقوم بحركات رشيقة، وبدت السعادة زاهية على وجنتيها الورديتين. وهنا عاود الشبان مشاكستها قائلين:

- قبلينا! وإلا سنقذفك بالماء من جديد!

اقتربت جميلة منهم وقبلتهم واحداً بعد الآخر، وقفزت من جديد إلى النهر، وهي تطلق الضحكات الرنانة، وضفائرها الطويلة تنسدل على ظهرها بعد أن أشبعت بالماء.

ضحك كل مَنْ كان على البيدر على تصرفات الشبان المضحكة. أما الكهول، الذين يقومون بالتذرية، فقد ألقوا المذار من

أيديهم، وأخذوا يمسحون الدموع الناجمة عن الضحك، وقد انفردت التجاعيد على وجوههم المتعبة، وبعثت لبرهة من الزمن روح الشباب قبل الحرب. وأنا أيضاً ضحكت من كل قلبي. وقد نسيت في هذه المرة الغيرة، التي كانت ترافقني دائماً كي أصون جميلة من أيّ شاب كان يحاول الاقتراب منها.

أما دانيار وحده فلم يضحك نهائياً. كان يقف وحيداً عند نهاية البيدر، وبدا مرتاحاً لدرجة ما وهو يبعد رجليه عن بعضهما. واتضح لي الأمر، وكأنه سيخرج عن طوره، وينطلق ليخلص جميلة من أيدي الشبان. كان يتابع حركاتها بلا توقف، ونظراته كانت مليئة بالشغف والإعجاب، مع شيء من الفرح والألم في نفس الوقت. نعم، حتى السعادة والمصيبة عنده كانتا تتحصران في روعة جميلة. وعندما كان الفرسان يضمونها إلى صدورهم ويجبرونها على تقبيلهم واحداً بعد الآخر، كان دانيار يخفض رأسه، وقام بحركة وكأنه يستعد للمغادرة، ولكنه لم يغادر.

لقد لاحظت جميلة هذا. فتوقفت عن الضحك وجمدت في مكانها، ثم قالت مخاطبة الشبان المغتبطين بها:

- لقد لعبنا بما فيه الكفاية!

حاول أحدهم أن يضم جميلة، فأجابته بخشونة وابتعدت عنه، وألقت نظرة تأسف واعتذار نحو دانيار، وركضت بعيداً عن الناس إلى بين الحشائش الطويلة، حتى اختفت كلياً، وخلعت فستانها وعصرت الماء منه.

لم أفهم سابقاً طبيعة العلاقة بينهما أما الآن فقد اتضحت لي نسبياً. وعلي أن أعترف أنني كنت أخاف من التفكير بهذا، ولكن

لم أفهم الحيرة، التي ألّمت بي عندما كنت ألاحظ أن جميلة كانت تشعر بالكآبة بسبب ارتباطها مع دانيار. وكان من الأفضل لها أن تبقى كالسابق تضحك وتتكلم بفرح ودون خلفية لكلامها. ولكن، وفي الوقت نفسه، ساورني شعور فرح غير مفهوم تجاهها، عندما كنا نعود في الليالي إلى القرية، وكنا نستمع لأغاني دانيار.

عندما تجاوزنا المضيق كانت جميلة تجلس على العربة. وما إن قطعنا المضيق إلى السهل حتى نزلت جميلة عن العربة، وسارت على قدميها. وأنا أيضاً سرت ماشياً. هكذا كان أفضل: أن يسير الإنسان ويستمع إلى شيء رائع. في البداية سار كل منّا إلى جانب عربته، ولكننا مع كل خطوة كنّا نخطوها كنّا نقترب من بعضنا، حتى أصبحنا جميعاً نسير سوية مع دانيار دون أن نلحظ هذا. حقاً، كانت هناك قوة خفية غير محسوسة تقربنا منه. وكنت أحب أن أنظر إلى تعابير وجه دانيار ونظرات عينيه، والتأكد ما إذا كان هذا هو حقاً الإنسان المتجهم دانيار!

وفي كل مرة، كنت ألاحظ كيف كانت جميلة تمدّ يدها مرتبكة راجفة بهدوء كي تسلم على دانيار، ولكنه لم يلحظ هذا، كان ينظر بعيداً، وإلى الأعلى، مسنداً قفا رأسه إلى راحة يده. وتأرجح من جهة لأخرى. وعند ذلك كانت تنزل يد جميلة بلا إرادة وتمسك بحافة العربة. ارتعدت في مكانها، وسحبت يدها بسرعة، وتوقفت في وسط الطريق متجهمة، مستغربة، نظرت طويلاً في أثره، ثم تابعت المسير من جديد.

وبدا لي الأمر أحياناً أنني مع جميلة معجبين بشيء، وهو أننا نعاني من شعور مبهم متشابه. وربما كان هذا الشعور مدفوناً في أرواحنا، أما الآن فهل جاء دوره؟

وأثناء العمل كانت جميلة تنسى، ولكن في تلك الدقائق القليلة لاستراحتنا، عندما كنا نبقى في البيدر، كانت تشعر بالحيرة ولا تجد لنفسها مكاناً. كانت تجلس جانب رجال التذرية، وتساعدهم في عملهم، إذ كانت تقذف القمح مع التبن للأعلى حتى تقوم بعملية الفصل بين الحب والتبن، ثم، وبعد برهة تقذف المذراة، وتبتعد عنهم إلى كدس القش. وهناك كانت تخاف وهي تجلس في البرد المسائي وحيدة. كانت تناديني:

- تعال إلى هنا كيتشيني بالا، فلنجلس معاً!

كنت أنتظر دائماً أن تقول لي شيئاً مهماً، وتصارحني بما يقلقها، ولكنها لم تقل شيئاً. كانت تجلس وتمسح على رأسي، ثم تضمه لتضعه على ركبتها، وهي تنظر إلى مكان ما في البعيد، وهي تغرس أصابعها بين خصلات شعري الأشعث، وتمسح على وجهي بحنان ورقة بأصابع يديها الدافئة والمرتجفة. كنت أنظر إليها من الأسفل للأعلى، إلى وجهها، وهناك كنت أصطدم بحيرة قاتلة وقلق غير محدود، وحزن دفين. وبدا لي الأمر كأنني أرى شخصي من خلالها. وثمة شيء كان يعذبها، وشيء آخر كان يتراكم وينضج في عالمها الداخلي، وكان يحث الخطا للخروج من روحها. كانت تخاف من هذا، فهي كانت ترغب بصورة معذبة، وفي الوقت نفسه لم ترغب أن تقنع نفسها بأنها تحب. وهذا ينطبق عليّ، إذ كنت أتمنى ولا أتمنى أن تكون جميلة قد عشقت دانيار. فهي في نهاية الأمر كنّة أهلي، وزوجة أخي!

اخترقتني هذه الأفكار للحظة كالسهم السريع. طردت هذه الأفكار من رأسي. فبالنسبة لي كان بمثابة المتعة الطبيعية أن أرى

شفتيها مبتسمتين ببراءة كابتسام الأطفال؛ وأن أرى عينيها الغارقتين بالدموع. يا لها من شابة رائعة، يا لها من حسناء! وأي إلهام منير وشوق عذب كان يظهر وجهها بصدق! فكنت أرى كل هذا في هذه الفترة، ولكني لم أفهم شيئاً. نعم، وحتى الآن أطرح على نفسي سؤالاً: هل من الممكن أن يكون الحب قوة إلهام، كما يأتي الإلهام للرسام أو الشاعر؟ وأنا أنظر إلى جميلة، تجتاحني رغبة أن أركض في السهوب، وأصرخ بكل ما لدي من قوة؛ وأن أتضرع إلى الأرض والسماء، راجياً أن تدلني عمّا عليّ أن أفعله. وكيف لي أن أنتصر على هذا الصراع غير المفهوم، وهذه السعادة غير الواضحة أيضاً؟ وذات يوم، كما يبدو، وجدت الإجابة.

كنا نغادر المحطة كعادتنا في كل يوم. أما اليوم فقد تأخرنا وخيمت الظلمة، وانتشرت النجوم في السماء زرافاتٍ ووحداناً[1]، ومالت السهوب إلى الخلود في نوم عميق، وفقط أغاني دانيار كانت تعم الفضاء وتخرق الصمت: صعدت وجلجلت بعيداً، ثم انطفأت في البعاد الناعم المظلم. وأنا وجميلة كنا نسير خلفه.

ولكن ماذا حدث مع دانيار في هذه المرة؟ كان في غنائه كثير من الرقة والوجدان، المتضمن شيئاً من الحزن والوحدانية، حتى يشعر الإنسان أن الدموع تنزل إلى الحنجرة عند التعاطف والإحساس بمشاعره.

سارت جميلة مطأطئة الرأس وهي تتمسك بحافة العربة بشدة. وعندما أخذ صوت دانيار يعلو من جديد، رفعت جميلة رأسها، وقفزت بسرعة إلى العربة وهي سائرة، وجلست إلى جانب دانيار. جلست دون

---

[1] أي جماعات وفرادى.

حراك، واضعة يديها على صدرها وكأنها قد تجمدت. كنت أسير إلى جانب العربة، متقدماً قليلاً إلى الأمام، وأنا أنظر إليهما من الجانب. تابع دانيار غناءه وكأنه لم يلحظ جميلة عندما جلست إلى جانبه. لقد لاحظت كيف فكت يديها عن صدرها وأنزلتهما إلى جانبيها، واقتربت بجسمها إلى دانيار وأحنت رأسها على كتفه، فاهتز صوته لثانية، وكأنه غيّر المقياس الغنائي، ثم انطلق بقوة جديدة. كان يغني عن الحب!

أعجبتُ إعجاباً كبيراً بغنائه. وبدا لي وكأن الظلمة قد انقشعت عن السهول، التي انتفضت وطردت الظلام عن وجهها. عند ذلك رأيت على خلفية السهول الواسعة وجهين مشعين لعاشقين. كنت أسير وأنظر كيف كانا قد نسيا كل شيء في الدنيا، وكانا يتأرجحان على العربة حسب ما تمليه عليهما الأغاني. وساعتئذٍ لم أعد أعرفهما. لقد كان هذا دانيار في سترته العسكرية المفتوحة، التي اعتراها اهتراء الزمن، ولكن عيناه بدتا وكأنهما تشعان في الظلام. وهذه كانت جميلة، وقد التصقت به، ولكن بكل هدوء وحياء، مع بعض الدموع، التي أخذت تتدحرج من رموش عينيها. هذان الإنسانان كانا جديدين، سعيدين إلى أبعد الحدود الإنسانية. ألم تكن هذه سعادة حقيقية؟ فكل هذه الموسيقى الملهمة الرائعة كان يهديها دانيار لها، وكان يغني من أجلها، ويصدح طرباً عند ذكرها.

لقد امتلكتني تلك الغبطة القلقة غير المفهومة، التي كانت تسيطر على مشاعري عندما أصغي لأغاني دانيار. وهنا فجأة اتضح لي ما أرغب به: نعم، علي أن أرسم لوحة لهما.

خفت من أفكاري الخاصة، ولكن الرغبة كانت أكبر بكثير من الخوف. سأرسمهما سعيدين كما هما في واقع الحال! نعم،

هكذا كما هما في هذه اللحظات! ولكن هل سيكون هذا بإمكاني؟ جمدت روحي في صدري من الخوف والفرح. كنت أسير في نشوة سكر حلوة. فأنا كنت سعيداً أيضاً، لأنني لم أعرف بعد كم ستكلفني هذه الرغبة المغامرة في المستقبل من مصاعب ومتاعب. وكنت أقول لنفسي: عليّ أن أرى الأرض هكذا، كما يراها دانيار، وسأروي معاني كلمات أغاني دانيار من خلال الألوان. ففي لوحتي أيضاً ستكون الجبال والسهول، والناس، والأعشاب، والغيوم، والأنهار. لقد فكرت آنذاك: "من أين لي أن أحصل على الألوان؟ ففي المدرسة لن يعطوني ما أريد: فمواد التلوين لا تكفي للتلاميذ!" وهكذا أخذت أعاني وكأن الأعمال كلها تنحصر في هذا.

أما أغنية دانيار فقد توقفت عن الصدح فجأة. هذه جميلة قد ضمته إلى صدرها بقوة، ولكنها ابتعدت عنه بسرعة. جمدت في مكانها لبرهة. استدارت بحدة جانباً، وقفزت عن العربة. شدّ دانيار مقود الخيول بهدوء وحيرة، فتوقفت الخيول. وقفت جميلة على الطريق، ونظرت إلى الجهة البعيدة، ثم أدارت رأسها بحدة، نظرت إليه نظرة جانبية، وبالكاد امتلكت دموعها، وقالت:

- ما بك تنظر هكذا؟ - صمتت قليلاً، ثم أضافت بحدة - لا تنظر إليَّ هكذا، اذهب إلى عربتك! - وسارت باتجاهها- وأنت لماذا تقف هنا؟ - قالت لي غاضبة- اجلس في العربة وأمسك المقود! إيه! يا للمصيبة التي حلّت بي معكما!

"لماذا تقول كلّ هذا فجأة؟". - ودون أن أفهم ما كانت تقصده صرخت بالخيول فأسرعت. وهنا لم يكن من الصعب أن أحزر: لم يكن من السهل بالنسبة لها، فهي متزوجة، وما زال زوجها على قيد

الحياة في مكان ما في مستشفى عسكري. ولكنني هنا لم أرغب نهائياً بالتفكير بأي شيء. لقد اغتظت منها، ومن نفسي، وكان من الممكن أن أحقد على دانيار لو علمت أنه لن يعود إلى الغناء مرة أخرى، وأنني لن أسمع صوته وهو يغني مرة أخرى بعد الآن.

كان الإرهاق يضنيني، وكنت أرغب بالوصول بسرعة إلى البيدر، وأن أستلقي على أكداس القش. وكانت تتراءى ظهور الأحصنة في الظلمة، وهي تسير مسرعة، حتى لم نعد نطيق الجلوس في العربة المتأرجحة بشدة، حتى المقود كان يفلت بين الحين والآخر من يديّ.

عندما وصلنا إلى البيدر، قمت بنزع العدة عن الخيول، وقذفت بها تحت العربة. وعندما صعدت إلى كدس القش، سقطت متعباً. أما دانيار فقد أخذ على عاتقه في هذه المرة أن يأخذ الخيول إلى مرعاها.

في الصباح، استيقظت وشعور فرح يساور روحي بأريحية. سوف أرسم لوحة لجميلة ودانيار! أغمضت عيني، وتصورت دانيار وجميلة كما هما، وكيف سأرسمهما بكل تعابيرهما، ولم يبق إلا أن أتناول الألوان والفراشي وأسرع بالرسم.

ركضت نحو النهر، اغتسلتُ، ثم انطلقت إلى الخيول المقيدة. أما العشب فقد كان نديا، وكان يرطب بنداه الأرجل الحافية، ويتكسر أحياناً تحت وقع الأقدام وهو يصدر خشيشاً ناعماً. وكنت أشعر بارتياح. وأركض، وأحدد ما كان يدور من حولي. الشمس كانت تتعالى شيئاً فشيئاً بين الجبال. ونحو الشمس كانت تتجه أقراص عباد الشمس، التي نمت مصادفة على حواف القنوات. أما

حبيباتها فقد التفّت بشدة حول رؤوسها البيضاء، وارتشفت قطرات الندى بألسنتها الصفراء، وأخذت تستقبل شعاع الصباح، وتروي سلة البذور المتراصة في دوائر جميلة مكتظة بشدة. وها هي العجلات تنهب الأرض بسرعة عند الالتفاف، فترتفع عندها المياه حول أطراف العربة. وها هي البحيرة الليلكية تحيط بها نباتات النعناع، الذي نما طويلاً حتى الحزام. كنت أركض فوق أرضي الأم، وفوق رأسي كانت تطير الأوراق وكأنها في سباق معي. إيه! حبذا لو كانت لدي ريشة وألوان حتى أقوم برسم لوحة لشمس الصباح، ومن حولها تظهر الجبال الزرقاء ونبات القرط يغطيه الندى. كما سأرسم عباد الشمس، الذي نما من بذور الموسم الماضي قد انتثرت على حواف القنوات!

عندما عدت إلى البيدر، انقلب مزاجي الحسن فجأة نحو الأسوأ. رأيت جميلة وقد بدا عليها الغضب، وكما يبدو عليها فعلاً، أنها لم تذق طعم النوم مطلقاً في الليلة الماضية، وبدا الظل الأسود واضحاً تحت عينيها. ولم تبتسم لي حسب عادتها، ولم تتحدث معي، ولكن عندما جاء قائد المجموعة أرزومات، اقتربت جميلة منه، وقالت دون أن تلقي التحية:

- خذوا عربتكم وأرسلوها حيثما تشاؤون، وأنا لم يعد بإمكاني أن أسافر يومياً إلى المحطة!

- ماذا حلّ بك يا جميلة، هل عضك نبرٌ شرس؟ - قال أرزومات بطيب خاطر مع الاستغراب.

- النّبر في الحظيرة تحت ذيول العجول! ولا تحققوا معي! - لقد قلت لكما لا أريد أن أسافر إلى المحطة، وانتهى الأمر!

فارقت الابتسامة وجه أرزومات.

هنا ليس للرغبة الشخصية مكان، فعليك أن تنقل الحبوب كما هو مفروض عليك سواء رغبتي في ذلك أم لم ترغبي! - قال أرزومات هذا وضرب بعصاه فوق الأرض - وإذا أزعجك شخص ما، فقولي بصراحة. سوف أكسر هذه العصا على رقبته! وإذا لم يحدث هذا، فلا تتصرفي تصرفات خاطئة، فأنت تقومين بنقل القمح للجنود، وزوجك يخدم هناك!. واستدار جانباً وهو يتكئ على عصاه.

شعرت جميلة بالحيرة، وخجلت خجلاً واضحاً، ونظرت نحو دانيار، وتنهدت بهدوء. كان دانيار يقف بعيداً مديراً ظهره لها، وهو يشد أحزمة العدة على الخيل. كان قد سمع كل الحديث. وقفت جميلة لحظات، وهي تلوح السوط بيدها، ثم لوحت بيدها يائسة، وسارت نحو عربتها.

في هذا اليوم عدنا باكراً. إذ كان دانيار يسوق الخيول بسرعة، بينما كانت جميلة حزينة وكئيبة. لم أحس مطلقاً، ولم أصدق نفسي، وأنا أنظر إلى السهول الجميلة، التي تم حصادها، حتى بدت سوداء في نظري. فالبارحة كانت تختلف كلياً عن اليوم. وكأنني سمعت حكاية عنها. ولم تخرج من رأسي لوحة السعادة، التي امتلكت وعياً كاملاً في السابق. وبدا لي وكأنني أخذت الجزء المضيء منها بألوان فاقعة، وتصورت نفسي في كل الحالات والأوضاع. وهذا فقط ما أثار اهتمامي. ولم أهدأ مطلقاً، حتى أخذت من عاملة القبان ورقة بيضاء سميكة، وركضت إلى خلف الكدس، وقلبي يزيد من خفقانه في صدري. ووضعت الورقة فوق راحة الرفش، الذي قمت بإصلاحه وتنعيمه عند النجارين وصانعي الشواعيب.

- الحمد لك يا الله! - قلت هامساً، كما همس أبي عندما أجلسني على صهوة الجواد في أول مرة. وهكذا لامست الورقة برأس

قلم الرصاص. وكانت هذه الحركات اللاإرادية. وبعد لحظات برزت على الورقة ملامح شخصية دانيار. لقد نسيت كل شيء! وبدا لي أنني أشاهد أمامي لوحة تلك الليلة من شهر آب. وعدت إلى تلك اللحظات، التي انسجمت فيها مع أغنية دانيار، وأراه أمامي وهو يصدح رافعاً رأسه والسترة قد ابتعدت إلى جانبيه وبان صدره. أخذت أتذكر، بل أشاهد جميلة وهي تحشر نفسها إلى كتفه. لقد كانت هذه هي لوحتي الأولى: هذه العربة، وها هما الاثنان، هذا هو حبل المقود الملقى فوق ظهري الحصانين اللذين كانا يسيران بسرعة في الظلام. وهناك كانت الحقول، وفوقها النجوم البعيدة.

لقد كنت أرسم بانسجام كبير، حتى إنني لم ألحظ أي شيء يدور حولي، وعدت إلى يقظتي عندما سمعت صوتاً ما يخاطبني:

- ماذا حلّ بك؟ هل فقدت حاسة السمع؟!

كانت هذا صوت جميلة. فقلقت، وارتبكت حتى احمرّ وجهي، ولم أتمكن من إخفاء اللوحة.

- لقد قمنا بتحميل العربات، وناديا عليك مطولاً دون أن تجيب. فماذا تعمل هنا؟ وما الذي بين يديك؟! - سألت هي باستغراب، ثم أخذت اللوحة. حركت كتفيها معبرة عن غضبها، وهي تقول: نعم! نعم!، إذاً هكذا!!

لقد شعرت بالخجل حتى تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبلعني. نظرت جميلة إلى اللوحة بتمعن، ثم نظرت إلي بعينيها الحزينتين الذابلتين المخضبتين بالدموع، وقالت بهدوء:

- أرجو أن تعطيني إياها يا كيتشيني بالا. سوف أخفيها للذكرى. ثم طوت الورقة مناصفة، وأخفتها تحت ثوبها فوق بطنها.

خرجنا من البيدر، وسلكنا بداية الطريق، ولكني لم أتمكن من العودة إلى وضعي الطبيعي. مرّ هذا كله كما في حلم سريع. لم أصدق نفسي أنني رسمت فعلاً شيئاً مما رأيته في واقع الأمر. وهنا، تكون شيء ما من الشعور في أعماق روحي، وأخذت تتراءى لي بعض المبررات الغبية مع شيء من الفخر، والأحلام الوردية. وكل حلم أكثر مخاطرة، وأحلام أكثر تشويقاً من سابقتها. كل هذا أصاب رأسي بدوران غريب. لقد قررت أن أرسم العديد من اللوحات المختلفة، وذات مواضيع جميلة تدور في رأسي منذ زمن بعيد، ولكن ليس بقلم الرصاص، بل بالألوان الزيتية، ولم أشعر كيف اجتزنا الطريق بسرعة. كان دانيار يحث الخيول بشدة، وجميلة لم تقصر عنّا. كانت تنظر يمنة ويسرة، وتبتسم لشيء ما يدور في عالمها، وكأنها تأسف على شيء ما. أما أنا فكنت أبتسم لها، وهذا يعني أنها لم تعد غاضبة مني ومن دانيار. ولو طلبت أن يغني دانيار لصدح صوته اليوم كعادته.

وصلنا إلى المحطة قبل الوقت المعتاد. وكانت الخيول قد تبللت بالعرق المتصبب منها. وعلى الفور بدأ دانيار بنقل الأكياس وإفراغها. إلى أين كان يسرع؟ وماذا حصل في عالمه؟ كان عصياً على الفهم. وعندما كانت القطارات تمر من جانبنا وكان دانيار يتوقف ويحدّق فيها بنظرة طويلة متأنية. وجميلة كانت تنظر مثله، وبالطريقة نفسها، محاولة أن تعرف ما يدور في خاطره. وفجأة جاء صوتها منادية دانيار:

- تعال إلى هنا، حذوة الحصان قد خُلعت من مكانها، فساعدني على نزعها كي لا يتأذى الحصان.

اقترب دانيار وخلع الحذوة عن حافر الحصان، الذي ثبته بشدة

بين ركبتيه، ونهض واقفاً. وهنا قالت له جميلة بصوت خافت، وهي تنظر إلى عينيه:

- ماذا حلّ بك، ألا تفهم؟... وهل أنا فقط وحيدة في هذا الكون؟

حرف دانيار نظره جانباً دون أن يجيب. فتنهدت جميلة وقالت:

- وهل تعتقد أن الأمر بسيط بالنسبة لي؟

انتصبت شعيرات حاجبي دانيار وهو ينظر إليها بحب وكآبة، وقال شيئاً ما بصوت خافت، حتى إنني لم أسمع شيئاً. وعاد بسرعة إلى عربته، وكان راضياً لأمر في نفسه. كان يسير وهو يمعن النظر في حذوة الحصان في يده. نظرتُ إليه وفكرت: ماذا قالت له جميلة حتى رضي؟ وما الذي يدعوه للاطمئنان، عندما تقول له جميلة وبمرارة: "هل تفكر أن الأمر سهل بالنسبة لي؟".

انتهينا من تفريغ الحمولة، وأخذنا نستعد للعودة. وهنا دخل إلى ساحة المحطة جندي جريح، نحيف للغاية في معطف عسكري عتيق، وعلى كتفه كيس مُرقع. وكان قد نزل من القطار، الذي توقف قبل دقائق في المحطة. تلفت العسكري من حوله وسأل:

- مَنْ منكم من قرية كوركور؟ - فأجابته وانا استطلع من سيكون هو:

- أنا من كوركور. - وفي هذه اللحظة شاهد جميلة وابتسم بفرح وغبطة، فصرخت هي متفاجئة:

- هذا أنت يا كريم؟! - فأجاب العسكري المتجه نحوها

- نعم يا جميلة يا أختي العزيزة!. ثم أخذ يدها، وشد عليها بكفيه.

يبدو أن هذا الجندي كان من مواطني قرية جميلة، إذ قال:

- إنني عرفت بوجودك هنا! ولهذا قررت أن أقدم إليك فهذا أنا قادم من عند صادق. لقد كنت معه في المشفى. وإذا أراد الله، فإنه بعد شهر تقريباً سيكون في البيت. وعندما ودعته، قلت له: اكتب رسالة لزوجتك، وسأوصلها لها على الفور. فكتب هذه الرسالة على عجل، وقال: خذي استلميها كما أرسلها. حافظت عليها كي تصلك مع الصون. ومدّ كريم يده مقدماً الرسالة على شكل مثلث لجميلة.

خطفت جميلة الرسالة على عجل، إذ احمرّ وجهها، ثم عادت إلى وضعها، ونظرت بطرف عينها إلى دانيار. كان يقف وحيداً إلى جانب عربته، كما وقف آنذاك فوق الجبل، مبعداً رجليه عن بعضهما، وهو ينظر بعينين كئيبتين إلى جميلة.

وهنا هرع الناس من كل صوب. وكان بين الحاضرين أناسٌ من معارف العسكري القدامى، وحتى بعض الأقارب، فانهالوا عليه بالأسئلة. أما جميلة فلم تتمكن حتى من تقديم الشكر له على حمل الرسالة لها، حيث سمعت قرقعة عربة دانيار تمر من جانبها بسرعة، وخرجت من ساحة المحطة مثيرة خلفها هالة من الغبار فوق الطريق. فصرخ بعض الحضور مخاطبين دانيار:

- يا لك من مجنون!

- أخذ الحضور المحارب إلى زاوية ما. أما أنا وجميلة فبقينا في وسط الساحة، ونحن ننظر إلى الغبار المتصاعد خلف عربة دانيار، فقلت لجميلة:

- فلننطلق يا جيني!

- انطلق أنت، واتركني وشأني! - أجابت هي بمرارة.

وهكذا كانت هي المرة الوحيدة، التي نعود فيها من المحطة

كلٌّ على حدة. بينما كان الحر الجاف يكوي الشفاه المتشققة. والأرض المحصودة، التي بدت مشققة، وقد شواها حرّ النهار الطويل، أخذت الآن تفتر تدريجياً، وقد اعتراها الشيب المالح. وعلى أفق هذا اليوم الحار، أخذت الشمس تدنو من المغيب، وكأنها قد فقدت أبعادها الملتهبة. وهناك عند الأفق البعيد أخذت تتكوّن غيوم على خلفية حمراء برتقالية، وبين الحين والآخر، كانت تتطاير الرغوة البيضاء الجافة المتكونة على جانبي أفواه الأحصنة، وهي تلف عند المنعطفات، وتقذف برذاذ عرقها من حولها وهي تنهب الأرض بسرعة، وتحطم الشيح المتنامي عند عتبات الجبال. فكرتُ في قرارة نفسي، وقلت:

- "يبدو أن الطقس يبشر بالمطر القريب!".

شعرت أنني شريد وبلا مأوى في هذا العالم، وغرقت في حالة من القلق القاتل! ضربت الأحصنة، التي حاولت السير ببطئ لسعة خفيفة، حتى تزيد من سرعتها. وهرعت طيور الحبارى طويلة الأرجل قلقة مسرعة إلى جهة ما ملتحقة بسربها، بشكل مضطرب وغير منتظم... ومن حولنا عبر الطريق، كانت تتطاير الأوراق الصفراء لنباتات راعي الحمام. ومثل هذه النباتات لا تنبت في أراضينا، وربما حملت الرياح بذورها من جهة الجبال الكازاخية. وغابت الشمس خلف الأفق. ومن حولنا لم تكن هناك أية كائنات بشرية. والشيء الوحيد السائد في تلك السهوب الممتدة هو الحر الشديد، الذي احتدم عند مغيب الشمس دون أية نسمة هواء.

عندما وصلت إلى البيدر، كانت قد حلّت الظلمة كلياً، وعمّ الصمت بلا صوت نسيم ما. فأخذت أنادي دانيار، فأجاب الحارس:

- إنه قد ذهب إلى النهر، ثم عمّ الصمت الكلي، وتفرق الجميع إلى بيوتهم. ولم يبق أي كان على البيدر ولا أي عمل كان!

وجهت الخيول إلى المرعى، وقررت أن أذهب إلى النهر. كنت أعرف المكان المحبب بالنسبة لدانيار: فوق الانكسار الجبلي.

وجدته يجلس حائراً، ضجراً، واضعاً رأسه إلى ركبتيه، وهو يجلس القرفصاء، ويصغي إلى أصوات ارتطام مياه النهر تحت المنحدر. كنت أرغب في أن أقترب منه وأعانقه، وأقول له شيئاً طيباً يروق له. ولكن ماذا بإمكاني أن أقول له لأهدئ من روعه؟ وقفت ردهة ليس بعيداً عنه، وعدت أدراجي. اضطجعت فوق القش فترة من الزمن، وأنا أنظر إلى السماء الغارقة في غيوم داكنة، وأخذت أفكر: "لماذا الحياة معقدة وغير مفهومة؟".

أما جميلة فلم تعد، فأين يا ترى قد اختفت؟ لم أقدر على النوم، رغم أنني كنت منهكاً من التعب. وثمة وميض خفيف كان يلمع أحياناً فوق الجبال، التي تغمرها الغيوم.

عندما عاد دانيار، كنت مازلت مستيقظاً. أخذ يسير ذهاباً وإياباً ضمن فسحة البيدر وبلا هدف. والشيء الوحيد، الذي كان يبدو عليه أنه يرقب بشغف الطريق. وأخيراً ألقى بنفسه فوق كدس القش بالقرب مني. فأخذت أفكر: "إنه سيغادر إلى جهة ما، فلم يبق له بعد الآن أحد في القرية! ولكن إلى أين سيغادر؟ فهو إنسان وحيد مشرد لا مسكن له. وهل هو ضروري لأحد كان؟". وهنا، وعندما أخذ النوم يسيطر على جفوني سمعت قرقعة هادئة حذرة لعجلات عربة تقترب من البيدر. كما يبدو، إن جميلة قد عادت.

لم أذكر كم غرقت في النوم. وفجأة سمعت حفيف وقع أقدام شخص ما بالقرب من أذني. وبعد ثوانٍ، أحسست وكأن

أجنحة مبللة قد لامست كتفي. فتحت عينيّ، هذه كانت جميلة، وقد عادت من النهر، وهي ترتدي فستاناً مبللاً. نظرت جميلة من حولها بصورة قلقة، وهي تقف بالقرب من دانيار، ثم جلست إلى جانبه، وخاطبته بهدوء:

- هذا أنا قد أتيت إليك يا دانيار. أتيت بنفسي.

أخذ الهدوء يخيّم فوق البيدر من جديد. ومن بعيد لمع ضوء برق نزل من علٍ بصورة متعرجة نحو النهر.

- هل أنت تكدرتَ مني؟ هل أنت غاضب جداً؟ ومن جديد عمَّ الصمت. ولكن بين الحين والآخر كان يعمّ الأرض ضوء ناجم عن برق شديد، ينزل من علٍ نحو النهر. وتعود جميلة للسؤال:

- هل أنا مخطئة، وأنت على حق؟ ...

ومن جديد قصف الرعد فوق الجبال، وأضاء البرق وجه جميلة من الجانب المقابل لي. نظرت جانباً والتصقت بدانيار. أما كتفاها فقد ارتعدا وارتجفا تحت ضغط يدي دانيار القويتين، فاضطجعت فوق القش إلى جانبه.

هبت رياح شديدة من جهة السهول الجنوبية، ورفعت بعض أعواد قش القمح عالياً، واهتز بيت الشعر القريب من مكاننا بشدة، وكادت الزوبعة تقتلعه من مكانه. ومن جديد شعَّ من بين الغيوم الملبدة شهب البرق الشديد. ومن فوقنا قصف بعد ثوان رعد قوي ذو شرخ حاد بين أوصاله. لقد امتزج شعور الخوف مع إحساس بسعادة خفية. لقد اقتربت العاصفة، وربما كانت آخر عاصفة صيفية. وهنا جاء صوت جميلة دافئاً حميمياً هادئاً:

- هل فكرت حقاً أنني أفضله عليك، وأختاره بدلاً منك؟ كلا، بالطبع لا! فهو لم يحبني في يوم من الأيام. حتى إرسال السلام

لي في رسائله كان يأتي في آخر الرسالة وبصورة جافة. فهو لا يلزمني نهائياً مع هذا الحب المتأخر. فدع الناس يقولون ما شاؤوا! أنت حبيبي الوحيد، ولن أعطيك لأحد! إنني أحبك منذ زمن بعيد، حتى قبل أن أعرفك، كنت أحبك وأنتظرك، وها أنت قد قدمت، وكأنك تعلم أنني أنتظرك بشوق!

أخذ البرق الأزرق يشتد بقوة واحدة بعد الأخرى، ويشع متكسراً عند الانكسار النهري الشديد. وها هي نقاط المطر الباردة تتساقط فوق القش اليابس، فتحدث أصواتاً خفيفة متميزة. وهنا جاء صوت دانيار هامساً، وهو يدلل جميلة بأجمل صور التحبب للأسماء الكازاخية والقرغيزية:

- جميليام. جمالتاي! استديري نحوي. أعطني فرصة للنظر إلى عينيك!

هبت العاصفة بشدة.

خفقت قطعة لباد قد انفصلت عن الخيمة، وسقطت بعيداً كطائر مطعون يصارع الهواء. ومع شيء من التقطع العاصف تساقط المطر، وكأنه يقبّل الأرض بين الحين والآخر تحت ضغط الرياح من كل صوب. وهنا، وعبر متسع شاسع من السماء، جلجل قصف رعد هائل هزّ المنطقة بأكملها. وفوق الجبال أخذ بصيص النجوم يبرز أحياناً مزهواً كزهور السوسن الربيعية. وعصفت الرياح المتصاعدة غضباً.

ازداد هطول المطر قوة، فغرقت عميقاً تحت القش، وانكمشت على ذاتي حتى كنت أسمع دقات قلبي تحت إبطي. لقد كنت سعيداً. لقد أخذت أحسّ بشعور خاص، وكأنني خرجت بعد مرض طويل

لأرى الشمس. وفي الوقت، الذي كان المطر والضوء البرقي يصلني تحت القش، كنت أشعر بسعادة خاصة. خلدت للنوم وأنا أبتسم دون أن أميز، وكأنني كنت أسمع همس دانيار وجميلة، أو أصوات وقع نقاط المطر، الذي أخذ يخف تدريجياً...

من الآن فصاعداً لم تعد تتقطع الأمطار، فقريباً سيبدأ الخريف. ومع هبات الرياح كانت تصل إلى أنفي رائحة الشيح الرطب المختلط مع رائحة القش المبلل. وماذا ينتظرنا في فصل الخريف؟ لم يكن في خلدي أن أفكر بهذا الآن.

في الخريف الماضي، وبعد سنتين من الانقطاع، عدت إلى المدرسة. وبعد الدروس، كنت غالباً ما أذهب إلى النهر بالقرب من الانكسار، وأجلس إلى جانب البيدر القديم، وقد أُلغيَ الآن، وأصبح مهجوراً. وهناك كنت أرسم لوحاتي الأولى بألوان الأقلام المدرسية. وكنت أدرك آنذاك، وحسب مفاهيمي، أنني لم أنجز الأمور، التي أرغب في إظهارها من خلال لوحاتي. وكنت أقول في قرارة نفسي: حبذا لو كانت لدي الألوان المناسبة، رغم أنني لم أكن أعرف كيف هي، وكيف من الممكن مزجها.

وبعد فترة طويلة، تمكنت من التعرف إلى الألوان المائية والزيتية في العبوات الرصاصية.

الألوان تبقى ألواناً، أما في واقع الأمر، وكما يبدو، كان المعلمون على حق: على المبتدئ أن يدرس ويتعلم أولاً. أما بخصوص الدراسة، فلم يكن بإمكاني حتى أن أحلم بذلك. وكيف سأدرس إذا لم يكن يصلنا أي خبر كان عن أخوتي في الجبهة. وأمي لم ولن تسمح لي، كابن وحيد "حامي ومعيل أسرتين"! ولذلك لم أكن أجرؤ

أن أتكلم عن الدراسة، لا من قريب ولا من بعيد. أما الخريف فقد كان جميلاً، وفيه الكثير من المناظر الخلابة، التي تحتاج أن يصورها الإنسان، وبدا هذا وكأن الخريف يستفزني.

أخذت مستنقعات كوركور تزداد ضحالة يوماً بعد يوم، وبرزت الصخور العارية، وازدادت نشوزاً فوق المنحدرات الجبلية. كما كثرت الطحالب الخضراء القاتمة والبرتقالية فوقها، واحمرت بعض الشجيرات لمجرد شعورها بالصقيع الأول. أما الحور، فما زال محافظاً على أوراقه الصفراء الكثيفة.

أما (يورتا)[1] الرعاة المغطاة بسخام المداخن، فقد اغتسلت قليلاً بالمطر، وازدادت سواداً في الأراضي المنخفضة حول المراعي القديمة. ومن مداخن هذه البيوت كانت تبرز خيوط هباب الدخان. ومن جهة المرعى كانت تصهل الخيول الضامرة، التي كانت تعدو مبعثرة عن بعضها البعض بخفة ورشاقة، أما الآن فسوف تبقى حتى الربيع القادم في وضع لا تحسد عليه، حيث ستبقى في قطيع القرية. أما قطعان الغنم، التي عادت من الجبال أفواجاً، أخذت ترعى في السهول الخالية تقريباً، إلا من بعض بقايا الحصاد من قش يابس على طول الطريق.

بعد مدة قصيرة، أخذت الرياح تعصف في السهول. وتلبدت السماء بالغيوم. وأخذت الأمطار الباردة تنهمر بغزارة، وهي بمثابة التباشير لهطول الثلوج. وذات يوم، كان الطقس معتدلاً، فذهبت إلى النهر، حيث أعجبتني في منطقة ضحلة شجيرة جبلية نارية. جلست بالقرب من البركة تحت ظل شجرة. حلّ المساء، وعند ذلك رأيت

[1] يورتا- خيمة مجهزة لسكن العمال والرعاة، من الممكن نقلها من مكان لآخر بسهولة. - (المترجم).

شخصين. وكما يتضح أنهما اجتازا النهر نحو البركة. إنهما دانيار وجميلة. لم أتمكن من أن أحيد نظري عن وجهيهما القلقين. كان دانيار يحمل على كتفه كيساً فيه بعض الأغراض. وكان يسير مندفعاً إلى الأمام بسرعة. بينما كانت أطراف المعطف العسكري تحف بأعالي الجزمة الجلدية القاسية، والتي اعتراها بلاء القدم والعمل. أما جميلة فكانت تضع على رأسها منديلاً أبيض، وقد لفّته خلف عنقها، وكانت ترتدي أفضل فستان لديها، مزركشاً بزهور متنوعة، وكانت هي تحب أن ترتديه وتذهب إلى السوق، وفوقه كانت ترتدي معطفاً مخملياً. وهي تحمل في يدها صرة صغيرة، وباليد الأخرى تمسك زاوية الكيس، الذي يحمله دانيار. كانا يتحدثان عن شيء ما أثناء مسيرهما.

ها هما يسيران بثقة عبر طريق ضيق فوق الهضبة، عبر الحشائش الكثيفة. وأنا أنظر إليهما بشغف، ولم أعلم ماذا عليّ أن أفعل: هل أصرخ منادياً لهما؟ ولكن لساني قد جفّ، والتصق في سقف حلقي.

أخذت خيوط الضوء الأخيرة طريقها إلى صفحة الجبال القريبة. ومن خلفها أسرعت الغيوم تتلبد في بعض السفوح الجبلية. وأخذت الظلمة تعمّ المكان. أما دانيار وجميلة فقد ابتعدا دون أن ينظرا إلى الخلف، وكانا يسيران نحو محطة السكك الحديدية. وها هما يختفيان كلياً عن نظري، وآخر ما رأيت رأسيهما، اللذين اختفيا بسرعة بين الحشائش الطويلة. وهنا صرخت بعفوية وبأعلى صوتي:

- جميلة. آ آ!

فأجاب الصدى بلا معنى: - آ آ آ آ.

يا جميلة!! - صرخت مرة أخرى. ودون إرادة أو وعي انطلقت أركض خلفهما عبر مياه النهر الباردة.

أخذت الغيوم الباردة تقذف برذاذها الجليدي في وجهي، فابتلت ثيابي، وأنا أركض غير مبالٍ، أين ستطأ قدماي. وفجأة تعثرت إحدى رجلي بشيء ما، فهويت بقوة على الأرض. تمددت، كل طرف في صوب، دون أن أرفع رأسي. أما الدموع فقد غطت وجهي، وكأن الظلمة قد سقطت على كتفي. وهنا طرقت أسماعي الأصوات الحزينة لصفير نبات القرام طويل الساق.

- جميلة! يا جميلة! أخذت أردد إلى جانب القرام وأنا أبكي كطفل صغير، أتجرع دموعي الحزينة.

لقد افترقت عن أغلى الناس وأقربهم مني. وفقط الآن وأنا أتمدد على الأرض أدركت ساعتئذٍ أنني أحبّ جميلة. نعم، هذا كان أول حبّ في حياتي، إنه حبّ الأطفال البريء.

بقيت مضطجعاً مدة طويلة وأنا أضع وجهي على كوعي المبلل. إنني لم أفترق مع جميلة ودانيار وحدهما، بل ودعت طفولتي كلها، وبكل ما فيها.

عندما عدت إلى البيت في الظلام، كانت في الساحة جلبة كبيرة، وكانت ترتفع أصوات حادة، وهناك من كان يجهز الخيول بالعدة الكاملة. أما عثمان الثمل، فقد كان يركب على الحصان وهو يتأرجح، أخذ يصرخ ملء حنجرته:

- منذ زمن بعيد كان من اللازم طرد هذه الكلبة العاهرة، يا لها من هجينة غريبة! يا له من عار! يا لها من فضيحة لحقت بقبيلتنا كلها! والله لو حظيت به لقتله في مكانه، ودع من يرغب في محاكمتي أن يقتلني. لن أغفر بأن يسمح كل متسكع لنفسه أن يخطف نساءنا! هبوا يا رجال، وامتطوا خيولكم! فهو لن يفلت من أيدينا. سوف نلحق به في المحطة القريبة!

لقد وضعنا كل الاحتمالات: إلى أين سيذهبون؟ وعبر أي طريق؟ ولكن كنت على قناعة بأنهما سيذهبان عبر الطريق الواسع إلى المحطة، وليس عبر الطريق المختصر الأقرب أما أنا فقد اختفيت عن أعين الناس، واختبأت في البيت، ولففت نفسي حتى رأسي بفروة أبي حتى لا يرى أحد دموعي.

وكم كان من أحاديث وإدانات لجميلة في القرية! فلم تبخل النسوة بإصدار الأحكام المختلفة عليها.

- يا لها من مجنونة! تركت هذه الأسرة الميسورة. لقد داست نعمتها!

- ماذا وجدت في هذا المتسكع؟ فلا يوجد لديه إلا هذا المعطف الممزق والجزمة العتيقة البالية!

- لقد انتهى كل شيء، فلم تعد الساحة مليئة بالقطيع! يا له من متسكع ومشرد بلا قريب ولا أسرة، وليس لديه أي شيء عدا ما يرتديه على أوصاله. ستعود هذه "الحسناء" لوعيها قريباً، ولكن الوقت سيفوتها. ولكن ثمة مواطن قال بحدة:

- وهل صادق رجل سيئ؟ وهل هو من أسرة سيئة؟ فهو رجل محارب وشجاع من شبان القرية المعروفين!

وماذا بخصوص حماتها! لا يهب الله مثل هذه الحماة لكل واحد! يا لها من امرأة رائعة! حقاً إن جميلة قد تنكرت للنعمة وبهروبها قد قتلت نفسها، يا لها من مجنونة! والأفظع من ذلك كله: من أجل من قامت بهذا؟

ربما كنت الوحيد في القرية الذي لم يوجه إدانة إلى جميلة، حبيبتي السابقة. وليكن دانيار فقيراً، وليس لديه إلا هذا المعطف القديم المهترئ والجزمة البالية، فإنني كنت أعلم أنه غني في عالمه

الداخلي، وذو معنويات وأخلاق أكثر من أي منّا. كلا، لم أصدق أن جميلة ستعيش بائسة معه، ولكنني كنت أحزن على وضع أمي. وكنت أعتقد أن جميلة قد أخذت معها سيرتها البيضاء، ولكنها اختارت الزاوية غير المناسبة. ولم أكن مدركاً كالآن، فهي لم تقدر على الاستسلام لمسألة أن الحياة تُفرض على الإنسان وتنتهي بصورة لا يرغب بها لأنه يتنكر للنظم والأعراف القديمة. فعندما تقتلع العاصفة شجرة كبيرة لا تعود قادرة على النهوض من جديد كالسابق. لم تطلب أمي من أحد أن يدخل لها الخيط في ثقب الإبرة، فكبرياؤها لم يسمح لها بذلك. ولكن ذات يوم، وعندما عدت من المدرسة، رأيت يدي أمي ترتجفان، فهي لم تتمكن من وضع الخيط في الإبرة، وأخذت تبكي، ثم قالت لي، وتنهدت بحسرة:

- خذ يا بني وأدخل لي الخيط في ثقب الإبرة. لقد غادرت جميلة، التي كانت تعينني... إيه! كم كان لها دور كبير في الأسرة! لقد غادرت وتركتني لوحدي!... لقد تخلت عنا... ولكن لماذا غادرت؟ هل كانت تعاني من الحياة معنا؟!.

أردت أن أقترب من أمي وأضمها لصدري، وأخفف من معاناتها، وأتحدث لها عن هذا الشخص دانيار، ولكنني لم أجرؤ. ولو تحدثت، لأحسستها بالإهانة طوال حياتها.

وعلى الرغم من كل صمتي، وبراءتي من المشاركة في هذه القصة لهروبها، إلا أن الأمر لم يبق سراً...

لم يمض وقت طويل حتى عاد صادق. بالطبع أخذ يعاني حزيناً، وتحدث ذات يوم لعثمان، وقد كان ثملاً:

- لقد غادرت. دعها تغادر. ستموت في مكان ما. وفي عصرنا، النساء اللواتي بحاجة لرجل كثيرات. حتى أجمل حسناء ذات شعر

ذهبي لا تساوي إصبع شاب بسيط أمضى خمس سنوات في الحرب. فأجاب عثمان:

- هذا صحيح! ولكن الأمر المؤسف أنني لم أحظَ به آنذاك، وإلا كنت قد قتلته وانتهى كل شيء هنا! وربطتها بشعر ذيل الحصان وسحبتها طويلاً على الأرض! وكما يبدو أنهما غادرا إلى الجنوب للعمل في جني القطن، أو ذهبا إلى كازاخستان. فهي ليست المرة الأولى، التي يتسكع فيها هناك! ولكنني حتى الوقت الحاضر لا أعلم كيف حصل هذا، ولم يعلم أحد في القرية شيء. وحتى لم يفكر أحد بهذا، فهو من صنعها، يا لها من خائنة. هي نظمت الأمر! آه لو كان الأمر بيدي لعلمتها!...

وعند سماع هذه الأحاديث من عثمان، كنت أرغب في أن أجيبه: "ليس بإمكانك حتى الوقت الحاضر أن تنسى كيف لقنتك جميلة درساً لا تنساه أيام جمع الحشائش! يا لك من كائن لئيم ورخيص!".

وذات مرة كنت أجلس في البيت أرسم بعض الرسومات للمجلة الجدارية المدرسية، وأمي كانت تطهو عند الموقد، وفجأة هجم نحوي، ودفع بورقة إلى تحت أنفي، وسأل حانقاً:

- أنت رسمت هذا؟

ذهلت حائراً. إن هذه الورقة كانت أول لوحة أرسمها، إذ وقف دانيار وجميلة وهما ينظران نحوي. فأجبته بكل هدوء:

- أنا، أنا رسمتها. فسأل وهو يدس إصبعه مشيراً إلى الشخص، الذي يقف إلى جانب جميلة في الصورة:

- وهذا من يكون؟

- إنه دانيار. - أجبته بشجاعة.

- يا لك من خائن! - صرخ صادق في وجهي.

مزّق الورق إلى قطع صغيرة، وخرج وهو يطبق الباب خلفه بحدة.

وذات مرة سألتني أمي:

- هل كنت تعلم بهذه العلاقة بينهما؟

فأجبتها بهدوء ولم أرغب في الكذب:

- نعم يا أماه، كنت أعلم.

نظرت أمي نحوي لائمة، وهي لا تدرك ما تقول، وهي تنحني إلى الموقد. وعندما أجبتها قائلاً: "سوف أرسم لهما لوحات، وأكثر من مرة!"، غضبت أمي بمرارة، وهزت رأسها ببؤس.

نظرتُ إلى قطع الورقة الممزقة المرمية على الأرض، وأخذ الغضب والاستياء يضغطان على حنجرتي بشدة. فليعيبني من أراد أن يعيبني وليقل أنني خائن . ومن خنت أنا؟ هل خنت أسرتي؟ هل خنت قبيلتي؟ أنا لم أخن أحداً، ولم أخن حقيقة الحياة، حقيقة هذين الشخصين! فأنا لم أتمكن من الكلام عن هذا لأحد، حتى أمي لم تكن قادرة على فهمي.

أخذت القصاصات تسبح حائرة في عينيّ، وكأنها تدور كزوبعة على الأرض، كأن هذه القصاصات هي بمثابة الأعضاء البشرية المبعثرة المتطايرة. وهنا عصفت في ذاكرتي تلك اللحظة: عندما نظر دانيار وجميلة نحوي كما يبدوان في الصورة، التي مزقها هذا الوغد عثمان، وشعرت بكل أحاسيسي وكأني أسمع أغنية دانيار، التي صدح صوته بها في تلك الليلة من شهر آب، والتي لا تنسى إلى الأبد، تذكرت كيف غادرا الاثنان معاً يداً بيد من القرية. وهنا

اجتاحتني رغبة أن أخرج إلى الطريق بكل شجاعة تصميم، وأن أرسم لهما لوحة أخرى، وقلت لأمي بكل قوة إرادة:

- سأسافر للدراسة. أرجوك يا أمي أبلغي أبي أنني أريد أن أدرس، أريد أن أصبح رساماً!

كنت على ثقة أنها ستحاول منعي من هذا، وستبكي، لاسيما عندما ستتذكر أخواي، اللذين استشهدا أثناء الحرب في الجبهة. ولكن لم يحص هذا التوقع للعجب، ولم تبكِ، واكتفت بأن تقول لي بكل حزن وكآبة:

- افعل ما تشاء يا بني! واذهب للدراسة، أنت لا تختلف عن أخوتك، عندما يقسو ريشكم، فتحملكم أجنحتكم بعيداً... ومن أين لنا أن نعلم هل ستطيرون بعيداً وعالياً؟ ربما أنت على حق، فسافر يا بني. ربما ستغير رأيك هناك. فهذه ليست مهنة، فالرسم شيء قليل، وليس اختصاصاً مهماً... فادرس. سوف تعلم... ولكن لا تنسَ بيتك ومسقط رأسك...

ومنذ ذلك اليوم افترق البيت الصغير عنّا. وسافرت للدراسة بعد مدة وجيزة، وهذه هي كل قصتي.

دخلت إلى أكاديمية الفنون الجميلة بعد أن أنهيت المعهد المتوسط، إذ أرسلتني الإدارة. وهناك قمت برسم مشروع لنيل شهادة الدبلوم، وكان موضوع اللوحة ذلك الموضوع، الذي عاش معي دائماً، وبقيت أحلم به، ويتوهج مع كل يوم جديد...

ليس من الصعب أن يحزر الإنسان أن اللوحة كانت تعكس دانيار وجميلة وهما يسيران في طريق خريفي في أراضي قرغيزستان، وأمامهما فضاء نيّر وجميل.

ولتكن لوحتي غير كاملة فنياً، ولكنها كانت أغلى لوحة بالنسبة لي، فهي أول لوحة تعكس انفعالاتي وعدم استقراري الإبداعي الفني.

والآن، فأنا أعاني أحياناً من محاولات فاشلة، وتصادفني لحظات صعبة وقاسية، وأفقد الثقة في نفسي؛ فأعود إلى تلك اللوحة القريبة والغالية على قلبي، إلى صورة دانيار وجميلة، وأنظر طويلاً إليهما. وفي كل مرة أجري حديثاً طويلاً معهما.

أين أنتما الآن؟ وعبر أي طرقات تسيران؟ فالآن شقت كثير من الطرقات الجديدة في كازاخستان وسيبيريا! وهناك يعمل الشباب الشجعان. وربما أنتما وصلتما إلى تلك المناطق البعيدة؟ وأنتِ غادرتِ يا جميلتي هذه السهول الفسيحة، دون أن تنظري نحوي. ربما أنت تعبتِ، وربما فقدت الثقة في نفسك؟ استندي إلى كتف دانيار، ودعيه يغني لك أغنيته عن الحب، عن الأرض، عن الحياة! دعيه يصدح وهو يستخدم كل جماليات السهوب! وأرجوك أن تتذكري تلك الليلة من شهر آب! اذهبي يا جميلة لا تندمي، فأنت وجدتِ سعادتك الصعبة!

أنظر إليهما، وأسمع صوت دانيار، وهو ينادي إلى الطريق الصعب.

وكما يبدو، حان الوقت لتجهيز نفسي. سوف أعود إلى السهوب، إلى قريتي، وسأجد هناك ألواناً جديدة للوحة أخرى.

وستبقى ترانيم وأغنيات دانيار في كل خلية من عقلي إلى الأبد!

وستبقى نبضات دقات قلب جميلة تتناغم مع دقات قلبي ورعشات عقلي إلى الأبد أيضاً!